



ابن بطوطة

في سلطنة دلهي الإسلامية

عبدالله العلوي


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



ابن بطوطة

في سلطنة دلهي الإسلامية

ابن بطوطة

في سلطنة دلهي الإسلامية

عبدالله العلوي

إصدارات الشارقة عاصمة الثقافة الإسلامية 2014م

الناشر: دائرة الثقافة والإعلام . حكومة الشارقة . الإمارات العربية المتحدة
هاتف: ٥١٢٣٣٣٣ ٦ ٩٧١+
برّاق: ٥١٢٣٣٠٣ ٦ ٩٧١+
موقع إليكتروني: www.sdci.gov.ae
بريد إليكتروني: sdci@sdci.gov.ae

الطبعة الأولى ٢٠١٤

٩١٥,٤٠٤
ع ا.ا عبد الله العلوي
ابن بطوطة في سلطنة دلهي الإسلامية / عبد الله العلوي.- الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠١٤.
١٠٤ص.؛ ١٢,٥×٢٠ سم . (إصدارات الشارقة عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠١٤ م)
١. نيودلهي (الهند) - وصف ورحلات

ISBN: 9789948020905

توطئة

مفازات ابن بطوطة الهندية

يعتبر ابن بطوطة من أشهر الرحالة العرب، بل ومن أشهر الأسماء العالمية في أدب الرحلات، ويرجع السبب في ذلك إلى رحلته الطويلة التي امتدت منذ أن كان في الثانية والعشرين من عمره، إلى أن بلغ من الكبر مقاماً كبيراً، وخلال تلك الفترة الطويلة تجوّل بين الأندلس، والمغرب العربي الكبير، والمشرق العربي، وصولاً إلى الديار المقدسة في مكة، ثم الهند الكبرى والصين، وخلال هذه الرحلات التي كانت أطولها زمناً رحلة الهند ذات السنوات التسع.. خلال تلك المدة، دوّن ابن بطوطة رحلته الكاملة بعد عودته للمغرب، غير أن التدوين الأكثر تفصيلاً فُقِد في السفينة التي تعرضت لهجوم القراصنة، والتي كان الرحالةُ ومدوناتُه عليها. ويعتقد علماء التدوين أن النسخة المفقودة كانت أكثر تفصيلاً وكمالاً، لكونها صادرة عن مشاهدات وتسجيل يومي متواتر، فيما

النسخة المعروفة صادرة حصراً عن الذاكرة.. لكنها وبالرغم من ذلك ذات أهمية قصوى في أدب الرحلات المقرون بآفاق مفتوحة نحو دراسات أنثروبولوجية ثقافية.

ينتمي ابن بطوطة إلى مدينة طنجة بالمغرب العربي، وقد عُرف أهل المغرب يومئذٍ بشغف خاص في الترحال إلى بلدان المشرق العربي، وخاصة إلى الحجاز حيث الكعبة المشرفة، وقبر الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم).. كما كان حضورهم أُفقياً في قاهرة الأزهر الشريف، وأينما تيسّرت الإقامة الدينية العلمية، ومن محاسن تلك الأيام أن المُترحِّل لم يكن يفكر إلا في استحقاقات الرحلة وتكاليفها، حيث كانت الزوايا والتكايا تتكفَّل بالبقية، ففي كل ديار الإسلام كانت الزوايا في المساجد، والتكايا المشمولة بالخدمة الشاملة، مفتوحةً لكل زائر ومقيم، وهو أمر حلَّت محله الفنادق المكلفة في عالمنا المجبول على المال، والمال فحسب.

لقد شكَّل ابن بطوطة علامة فارقة في أدب الرحلات في العالمين العربي والإسلامي، لكنه إلى ذلك تساوق مع موجة الرحلات في تلك العهود التي ازدهرت وتنامت فيها ظاهرة الرحلات المقرونة بالتدوين الثقافي الشامل.

في هذا الإصدار الهام ضمن سلسلة إصدارات الشارقة عاصمة الثقافة الإسلامية، نتوقَّف مع المؤلف عبدالله العلوي حول رحلة ابن بطوطة الأطول في الهند، وسنرى كيف وجد نفسه أمام

مجتمع متعدد التراكيب الدينية والثقافية والحياتية، فقد كان عليه أن يُلامس آثار الآداب والفلسفات والديانات المختلفة، وخاصة المهابهاراتا، والرامايانا، واليونشتياد، والفيدا، وكانت هذه الآداب والمفاهيم تتقاطع حصراً مع الهندوسية والبوذية في نسختها الهندية الأكثر تجذراً.. لكن ابن بطوطة لم يتعمَّق في شرح الأبعاد المفاهيمية في هذه الديانات وكتبها المقدسة عند أتباعها، بل لاحظ على وجهٍ أخصَّ تلك الأُمور الغرائبية اللافتة للنظر، كما هو الحال بالنسبة إلى تقاليد (الساتي) القاسية والمفارقة لجوهر الديانة الهندوسية، فقد كان هذا التقليد يقضي بأن تنتحر الأرملة حرقاً مع زوجها الميت، وهو أمر لم يكن مُشرعناً ومقبولاً في مناطق الحضور الديني الإسلامي بالهند، كما لاحظ الانتحارات الذاتية المقدسة في نهر (الكنك)، وكذا طريقة التخلص من جثث الموتى في الديانة الزرادشتية، والتي كانت تقضي بترك جثة الميت نهباً للطيور الجارحة آكلة الجيف.

اعتنى ابن بطوطة بتلك التقاليد الغرائبية القاسية، ولم يقدم تفاصيل الأديان والعقائد، ربما ليقينه الإيماني بأنها عقائد مُجافية لعقيدته الإسلامية، وربما لكونه من متصوفة المغرب المتسامحين مع عقائد الشعوب، وإن تباعدت عن التوحيد الاسلامي..

ومن لطائف سيرة ابن بطوطة أنه شاهَدَ رؤيا خاصة وهو يتجول ببساط يطير به في مواقع بهية صافية، وأُخرى مظلمة قاتمة، وكأنه بذلك تنبأ بسيرته في الترحُّل الكبير، وصولاً إلى الهند والصين..

هنالك حيث دوَّن بكل دقة وصراحة عديد التقاليد الاجتماعية، وثقافة العمل، وسلوك السلاطين، وعجائب الهند.

التعرُّف إلى ابن بطوطة تضمينٌ هامٌّ لتلك التقاليد المعرفية المقرونة بالمُعاينات المكانية، والتوغل في ممالك العالم وتقاليده وعاداته، والاستقراء الانطباعي المعرفي لما كانت عليه أحوال الدنيا في تلك الأيام، وكلها أُمور تصبّ في مجرى تأصيل الثقافة العالِمة، ذات الأبعاد المتعددة.

د. عمر عبدالعزيز

تمهيد

سبق لي كتابة ثلاث مقالات عن رحلات ابن بطوطة محمد بن عبدالله الطنجي ١٣٠٣ - ١٣٧٧. المقال الأول بعنوان «ابن بطوطة في الهند» وتم نشره في جريدة أنوال المغربية. والثاني «ابن بطوطة في الصين» ونشر في جريدة العلم المغربية، والثالث «ابن بطوطة قاضياً» ونشر في مجلة المحامي لهيئة المحامين بمراكش.

ورغبت دائماً في الكتابة بتفصيل عن رحلات رحالة العصر، أو رحالة الملة - كما وصفه ابن جزي - خصوصاً إلى الهند لاعتبارات عدة، منها أن هذا البلد كان أهم محطات الرحالة. فقد عاش فيه لمدة ٨ سنوات أو ٩ سنوات، وهي أطول وأهم مدة قضاها في أي من البلدان التي زارها وعددها أربعون أو خمسة وأربعون، إذ استغرق الحديث عن هذا البلد نصف الكتاب. ومنها أن كاتب الرحلة نفسه اهتم بشكل أكبر بالهند، وأن ابن بطوطة اتخذ جنسية البلد حسب لغة العصر وأصبح هندياً، وعقد على نفسه الإقامة الدائمة بالهند،

ولولا تكليفه من طرف إمبراطور الهند محمد شاه ١٣٢٥ - ١٣٥١ بالذهاب في بعثة إلى الصين، عاد بعدها إلى المغرب دون المرور على الهند، لفقدنا هذه الرحلة الرائعة.

حاولت في هذا الكتاب شرح بعض ما استغلق على الرحالة في الهند مثل ظاهرة «الساتي»، أو عادة انتحار الأرامل حرقاً، وآلهة الهندوس ومعتقداتهم (ونهر الغانج)، وأدليت ببعض الملاحظات التاريخية حول الفترة التي سبقت وتلت الرحلة ووضعت: الجمل والتعابير التي وردت في الرحلة، أو لدى كتّاب آخرين بين مزدوجتين؛ حتى يستوعب القارئ نسبتها إلى أصحابها. ووضعت في نهاية الكتاب جدول ملاحظات لشرح بعض المصطلحات والمعاني والأسماء الواردة في الكتاب (حتى لا تربك القارئ لو ضمنت في الصفحات الوسطى للكتاب)، ولم أكتف بذلك، بل حاولت الإيجاز مع التركيز والاختصار مع الإفادة كما يقال. والله من وراء القصد.

مراكش

رجب ١٤٣٥/ مايو ٢٠١٤

ابن بطوطة في الهند

الرحلة أو الرحلات أو الأسفار، حث عليها الإسلام ﴿قل سيروا في الأرض﴾ سورة العنكبوت الآية ٢٠/ الروم الآية ٤٢/ النمل الآية ٦٩. و﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ سورة الحج الآية ٤٦. كما أن من طبيعة الإنسان الانتقال إما للبحث عن كلأ للأغنام أو عن سلع للمتاجرة، أوعن مناطق أكثر أمناً، أو هروباً أو نفياً أو لأغراض دينية مثل رحلات الحج التي قد تصير رحلة واسعة - كما الأمر بالنسبة إلى رحلة ابن بطوطة - وقد تكون الرحلة لهدف سياسي، ويتم بأمر رسمي انتقال بعثة أو فرد إلى دولة ما بغرض دبلوماسي أو لنقل رسالة، وقد تكون الرحلة لأسباب علمية أو عسكرية، وربما تتعدد أهداف الرحلة فتتحول من رحلة ذات هدف ديني مثلاً إلى رحلة استكشاف ومتعة، وهو أمر نادر.

في الزمن القديم كان الارتحال صعباً، وتحوطه أخطار عديدة، «ولذا اعتبر قطعة من نار» وكان السفر جماعياً دائماً، إما مع قافلة أو رفقة وفد رسمي وبحراسة، والسفر الفردي كان شبه مستحيل إلا لبعض الزهاد والمنقطعين للعبادة، وهم عادة لا يكتبون.

وقد عرفت المرحلة التاريخية من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثامن أزهى فترات الرحلات في تاريخ الإسلام، إذ تميزت بسيطرة المسلمين على مساحة واسعة من العالم القديم، فمن الأندلس حتى الهند بسط المسلمون نفوذهم على هذه المناطق بشكل شبه تام، وبالتالي كان السلام والأمن مستتباً تقريباً في هذه المناطق والدول، مما سمح للعديد من الرحالة بارتياد الآفاق وبعودتهم إلى الديار وكتابة هذه الرحلات أو نشر تدويناتها ويومياتها.

ومما زاد هذه الرحلات تشجيعاً وجود الزوايا والتكايا الدينية، فقد كان المسافر يجد في كل مكان زاوية للإقامة والعناية والرفد والاستقبال الحسن، بل إن مريدي الزوايا قد يتنازعون حق ضيافة المسافر. وقد روى ابن بطوطة حكاية هذه الخصومات بين الزوايا حول من له حق الضيافة. ولم تكن الأسفار تحتاج إلى مال أو جاه، فقد كانت الأرض واسعة فعلاً، وكانت قيمة المسافر تتأتى من علمه، وسلوكه، وأساساً من دينه، وأخلاقه، لذلك كانت الرغبة في السفر وحبه جواز الانتقال إلى العالم، لأن باقي الأمور شبه متوفرة.

ومن أهم الرحلات في التاريخ الإسلامي:

رحلة «سلام الترجمان» الذي اختاره الواثق بالله العباسي في سنة ٢٢٧هـ (القرن الثامن م)، للقيام بمهمة بجبال القوقاز. وحسب بعض الدراسات فإن سلام الترجمان كان يتقن ٣٠ لغة أو لساناً. وهذه الرحلة تدخل في نطاق الرحلات الرسمية.

وفي التاريخ نفسه تقريباً كانت هناك رحلات تجارية، مثل رحلة السيرافي سليمان ورحلة اليعقوبي، وابن وهب القرشي، وابن موسى المنجم وهي رحلة رسمية بتكليف من الواثق بالله العباسي إلى بلاد الروم.

ومن أهم الرحلات رحلة ابن فضلان، وهي أيضاً بتكليف رسمي من المقتدر بالله الخليفة العباسي، وهي الرحلة الوحيدة التي تؤرخ لمناطق في الدول الإسكندنافية وتمت في ٣٠٩ - ٣١٠هـ/ ٩٢١ - ٩٢٢م.

أما المسعودي فكانت رحلته علمية زار فيها أهم الدول من مدغشقر حتى سريلانكا. ودامت رحلته من ٣٠٩هـ حتى ٣٤٥هـ/ ٩٢١م إلى ٩٥٦م.

وتمت أيضاً رحلة ابن حوقل «المسالك والممالك»، ورحلة المقدسي «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، وكلتاهما رحلة علمية، ثم الرحلة الرسمية إلى الصين التي قام بها في أواخر القرن الثالث الهجري (٩ الميلادي) أبو دلف، ورحلة أبي الريحان البيروني الذي كان برفقة السلطان محمود الذي قاد غزوات الفتح الإسلامي للهند ما بين ١٠٠٠ - ١٠٣٠م. وقد تعلم البيروني السنسيكريتية، وألف كتابه الموسوعي «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، ثم رحلة الإدريسي المولود في مدينة سبتة المغربية «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

من طنجة

كان الزمان صيفاً عندما بدأ محمد بن عبدالله الطنجي رحلته الكبرى نحو العالم. كان هدف الزيارة الحج، وكانت سن الحاج ابن بطوطة ٢٢ عاماً. والحج في تلك الأزمنة كان يتم عن طريق القافلة بعد أن يجتمع الحجيج ويتم التهيؤ للرحلة مادياً، بتوفير شروط النقل والزاد، وإعمال الحراسة نظراً لأخطار الطريق، وقد يستغرق الوصول عن طريق البر حتى البحر الأحمر على الساحل المصري قرابة سنة حسب الأحوال، وظروف الطريق، ثم يعبر الحجاج البحر الأحمر نحو مدينة جدة، ثم إلى المناسك بمكة المكرمة. وقد لا يصل الحجاج في الوقت المناسب فينتظرون السنة المقبلة لأداء المناسك. وقد غادرت قافلة الحجيج التي كان ضمنها الرحالة ابن بطوطة مدينة طنجة في ٢١ يونيو من عام ١٣٢٥م/ ٢ رجب ٧٢٥هـ.

وافقت المرحلة التاريخية آنئذ سيطرة الدولة المرينية على السلطة في المغرب ومحاولتها بسط نفوذها في الأندلس. وكان سلطان المغرب في هذه الأثناء أبو سعيد عثمان ابن يعقوب ١٣١٠ - ١٣٣١م.

والدولة المرينية تأسست على يد السلطان أبي يحيى عبدالحق (١٢٤٤ - ١٢٦٨م) وانتهت على يد الوطاسيين أقرباء المرينيين ١٤٦٨م. وقد صادفت عودة ابن بطوطة من رحلته الكبرى الأولى بعد خمسة وعشرين عاماً، عهد السلطان المريني أبي عنان فارس (١٣٤٨ - ١٣٥٨م) وهو الذي أمر بتدوين الرحلة.

ومدينة طنجة التي انطلق منها الرحالة ابن بطوطة مدينة استراتيجية

تقع في أقصى شمال المغرب في ملتقى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، وفي أقرب نقطة إلى القارة الأوروبية. ويزعم أن اسمها اشتق من اسم أميرة تدعى «تنجيس» عاشت في القرن ١٤ قبل الميلاد، وقد اتخذت طنجة أهمية تجارية خلال كل المراحل التاريخية إلى حين الفتح الإسلامي في ٧٠٢م عندما قاد طارق بن زياد الجيش الإسلامي لفتح وإقامة حكم عربي إسلامي بالأندلس.

وفي العصر الحديث استعمرت طنجة من طرف الإنجليز إلا أن السلطان محمد بن عبدالله حررها في ١٦٨٤م. ورغم الطابع الإسلامي للمدينة، إلا أن الدول الأوروبية بعد هذه المرحلة فتحت فيها سفارات وقنصليات ونوادي، مما جعلها بعد احتلال المغرب تعاني من استعمار دولي استمر من ١٩١٢م إلى تاريخ استقلال المغرب ١٩٥٦م.

ويشير الأستاذ ستيفان إكسيل في كتابه «تاريخ شمال إفريقيا القديم» إلى أن اسمها «تينجي»، وأنها تعود لتاريخ قديم جداً، وأنها مثل مدن أخرى تحولت إلى عواصم كانت مفتوحة أمام حضارات ما وراء البحار فكانت أكثر تمدناً. وتتمتع طنجة بمناخ ألطف مما في المدن الداخلية، ومن غير المستبعد أن مدينة بهذا التاريخ والتراكم الحضاري وبانفتاحها على البحار، وعلى الناس من مختلف الآفاق كان لها تأثير في الرحالة ابن بطوطة بإذكاء رغبته وحبه للأسفار وركوب البحر على خطورته في كل الأزمنة. فهو يروي مصاعب

ومشاق السفر في بحر الصين، والمحيط الهندي، والمآسي التي شاهد وعاش من جراء أهوال البحر أو عدم كفاءة الربان الناخودة (= ربّ المركب أو ربانه)؛ وفي معجم البلدان أن طنجة مدينة على ساحل المغرب مقابل الجزيرة الخضراء على ظهر جبل بينها وبين القيروان - في تونس - ألفا ميل. ويؤكد الرحالة أنه بدأ رحلة الحج وعمره ٢٢ عاماً في يوم الخميس ٢ رجب ٧٢٥هـ، وأن والديه كانا على قيد الحياة. ولا يشير إلى أن له إخوة، بل هناك إشارة فقط إلى «الأحباب من الإناث والذكور» دون توضيح قرابتهم له. كما لم يشر إلى عمل والده عبدالله وحرفته، لكنه بعد عودته من الرحلة الكبرى قام برحلة قصيرة إلى الأندلس والتقى صدفة بابن عمّ له يمارس القضاء في غرناطة. وقد أشار الجزء الأول من الرحلة إلى الأخبار التي وصلته بوفاة والده، ثم أثناء رجوعه من رحلته الكبرى أشار إلى أن والدته توفيت بسبب الوباء، والواضح أن الذين أبلغوه بهذه الأخبار كانوا من طنجة أو من النواحي.

ومن المعروف أن أهل الشمال المغاربة كانوا مولعين بالسفر خصوصاً إلى الشرق، والدراسة في جامعاته، وقد استمروا على هذا الطبع حتى بداية القرن العشرين، بل حتى مطلع الستينيات. ولاتزال بعض الجامعات في الشرق العربي تحتفظ بذكراهم، خاصة الأزهر الذي يتوفر على حي للمغاربة، وجلّ تلاميذه كانوا من الشمال المغربي. وربما يكون هذا راجعاً إلى العلاقات الوطيدة مع الأندلس ومع ركوب البحر بصفة عامة ومع التجارة التي تقتضي

التنقل وأيضاً مع طلب العلم. لذلك ليس من المستغرب أن يكون أهم رحالة في تاريخ المغرب والعالم من الشمال المغربي، ذلك أن ابن بطوطة زار العالم القديم المعروف في القرن ١٣م أي حوالي ٤٥ دولة، وبعد عودته من رحلته الطويلة زار بعض المناطق الإفريقية، وزار الأندلس أيضاً. وفي غرناطة التقى بابن جزي الذي روى له - ضمن آخرين - جزءاً من ذكرياته. ولا شك أن ابن جزي هو الذي نقل الخبر إلى السلطان المريني أبي عنان فارس الذي قرر تدوين الرحلة وأمر بذلك.

كاتب الرحلة

ابن جزي أندلسي غرناطي ويقول الأستاذ أحمد التوفيق إن أصله ولبة بالأندلس، وإن أباه أبو القاسم محمد بن جزي، وهو فقيه مشهور، كان له ثلاثة أبناء منهم أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم كاتب الرحلة كان قد تعرض لعقاب من طرف حاكم غرناطة انتهى بنفيه إلى مدينة فاس، وتوفي عن ٣٦ عاماً في ١٣٥٦م وهو يمارس وظيفة كاتب في ديوان السلطان أبي عنان ١٣٤٨ - ١٣٥٨م.

وبالرجوع إلى الرحلة فإن ابن جزي لم يكتف بتقييدات أو حكي الرحالة، بل أضاف أشعاراً وتفسيرات منسوبة إليه. وبعض طبعات الرحلة حذفت هذه الإضافات واكتفت بالنص كما رواه أو كتبه ابن بطوطة، أما أغلب الطبعات فقد احتفظت بالرحلة كما هي بتعليقات ابن جزي والأشعار التي اختارها لتلطيف الرحلة حسب أهوائه.

كتبت الرحلة في مدينة فاس التي كانت عاصمة المغرب. وفاس مدينة تم تأسيسها في ٨٠٨م، وتشكلت في البداية من مدينتين، ففي معجم البلدان «فاس مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر وهي حاضرة البحر وأجلّ مدنه قبل أن تختط مراكش. وفاس مختطة من ثنيتين عظيمتين..»، وهي مشهورة في المغرب بالعاصمة العلمية نظراً للجامعة الشهيرة التي شيدت فيها، وجعلتها ملجأ لطلاب العلم ومقصداً لطلاب التدريس من الفقهاء.

وحسب محمد بن جزي فإن ابن بطوطة (اتخذ حاضرة فاس قراراً ومستوطناً بعد طول جولاته...).

وكان ابن بطوطة قد وصل فاس في ٧٥٠هـ يؤكد ذلك محمد بن جزي في قوله «انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ ابن عبدالله محمد بن بطوطة».... في صفر عام ٧٥٧هـ، أي بعد ست أو سبع سنوات من وصوله إلى المغرب. وكان ابن بطوطة بعد رجوعه من رحلته الكبرى قد زار الأندلس وبعض المناطق الإفريقية خاصة تنبكتو (تومبكتو). وكما هو معروف فالرحلة لم تكتب أو تدوّن إلا بعد اكتمال الرحلتين معاً إلى الأندلس وإفريقيا.

هذا وبالرجوع إلى خاتمة الرحلة التي وضعها ابن جزي قائلاً «انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبدالله محمد بن بطوطة أكرمه الله. ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد...»، فهو يشير في قوله هذا إلى أنه لخص تقييد ابن بطوطة. والمعنى أنه قام بتلخيص ما

كتب الرحالة. وكلمة تقييد تعني «تقييد نص الكتاب أو تقييد البيانات أي تسجيلها وتدوينها»، فالأمر لا يتعلق برواية شفوية أملاها ابن بطوطة، بل بكتابة لخصت من طرف ابن جزي. وإذا عرفنا أن الرحالة كاتب وفقيه وقاض أيقنا بسبقية كتابة مذكراته مرتين، كما أن المعلومات التي أشار إليها مع السنوات والأسماء لا يمكن أن توثق بالذاكرة وحدها، فلا بد أن يكون هناك تقييد.

عائلة ابن بطوطة

لم يشر الرحالة إلى والديه إلا قليلاً، ولم يشر إلى إخوته أو عائلته، فهل اعتبر الأمر غير مهم بالنسبة إلى القارئ؟ أم أن هذه التفاصيل ضاعت كما ضاعت المذكرات التي كان يسجل فيها يومياته أثناء إحدى الرحلات البحرية التي هوجمت من طرف القراصنة؟ إلا أنه يشير إلى أن القضاء مهنته ومهنة والده، وذلك جواباً عن سؤال حول الوظيفة التي يقبل بها في بلاط السلطان الهندي محمد شاه تغلق، وهو يشير أيضاً إلى أن قافلة الحجاج اختارته قاضياً لها خلال رحلة الحج. كما أكد أن له ابن عم في الأندلس كان يمارس القضاء.

وقد واجه ابن بطوطة عاصفة من النقد، فالبعض يؤكد أن ابن بطوطة لم يكن قاضياً لقافلة الحجيج أصلاً؛ لأن عمره كان بصريح قوله ٢٢ عاماً. والعادة أن قاضي قافلة الحج يجب أن يتجاوز عمره

الأربعين على الأقل، وأكد البعض أن أسلاف ابن بطوطة لم يكن بينهم قاض ولم يكونوا أمراء.

إلا أن اختياره قاضياً لقافلة الحج أثناء بداية الرحلة لا يمكن نفيه لمجرد كونه صغير السن، فقد تكون الرحلة لا تتوفر على كفاءات في مستوى ابن بطوطة الذي كان يتميز بعلم غزير أفاد به الناس في مختلف أطوار الرحلة رغم صغر سنه، أما كون أسلافه لم يكن بينهم قضاة فهذا أمر راجع لكون ابن بطوطة لم يحددهم بالأسماء، والذين ينفون ذلك ليس لهم دليل يدحض ادعاءات الرحالة ابن بطوطة.

ثم إن تولي القضاء يعني فض النزاعات المالية والشخصية والبتّ في الخصومات، وهو أمر يقوم به في أحيان كثيرة أشخاص لا يتوفرون على كفاءة القاضي الواسع المعرفة والاطلاع، لأن الأمر يتعلق بتحقيق العدالة وليس بالتنظير لها، وهو الذي يهم كبار الفقهاء/ القضاة. فعدد كبير من رجال السلطة في نفس المرحلة التاريخية التي عاش فيها الرحالة ابن بطوطة كانوا يمارسون مهنة القضاء باعتبارها فضاً للنزاعات بغض النظر عن الكفاءة العلمية الواسعة، علماً أن ابن بطوطة كان يتمتع بتلك الكفاءة في الفقه والشريعة، ظهرت في مختلف أطوار الرحلة، وأثناء مقامه بدمشق حين قام بنسخ أحد الكتب الفقهية. أما النقد الذي وجه إليه فيما اعتبر ادعاء للقضاء لنفسه ولأجداده، فله ما يرده، إذ القصد بـ«الأجداد» لا ينصرف بالضرورة إلى المعنى الشخصي/ العائلي، يؤكد ذلك قوله في السياق نفسه إن الأعاجم أسلمت بأسياف العرب، وإن

الإمارة أيضاً مهنة أسلافه، وإنما يفهم من هذا القول افتخاره بأصله العربي العريق، وأغلب الظن أن ذلك هو معنى قوله: (أما الوزارة والكتابة فليست شغلي، أما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي، أما الإمارة فتعلمون أن الأعاجم ما أسلمت إلا بأسياف العرب).

لذلك يكون أمر ممارسة ابن بطوطة للقضاء في قافلة الحجيج أثناء الرحلة، وفي دلهي بعد أن حط الرحال بالهند متطابقاً مع الواقع، ومع ظروف هذه المهمة المؤقتة. فلم تعرض عليه قضايا تهم قافلة الحجيج أثناء الرحلة، ولم يذكر هو نفسه أنه حكم في شيء من ذلك، وإنما ذكر نازلتين اثنتين في دلهي سنعرض لهما فيما بعد.

الهند في القرن ١٣

كيف كانت الهند وما هي هذه البلاد التي زارها ابن بطوطة وعاش فيها ثماني سنوات، وتولى فيها عدة مهام رسمية، بل أصبح مواطناً هندياً بدليل العقد الذي اختار بموجبه الإقامة الدائمة، أي اختار الجنسية الهندية بلغة العصر؟ كان البلاط الإسلامي في حاجة ماسة إلى الأطر الإسلامية والعربية. نظراً للوسط العدائي الذي كان يحيط بالسلطنة، وكان الكثير من زوار بلاط السلطان محمد شاه يرغبون في الزيارة لما ينالهم من كرم السلطان. وكان البلاط الهندي ومستشارو الإمبراطور الهندي قد استاؤوا من هؤلاء «الانتهازيين»، مما أرغم الإمبراطور على إصدار قرار فرض الإقامة الدائمة على من يرغب في زيارة الهند. ويظهر أن هذا القرار كان

يهم المسلمين فقط، فهم المطلوبون للإقامة الدائمة أو منح الجنسية، نظراً لاحتياج السلطنة لهم. وذلك ما جرى عندما وصل الرحالة الطنجي المسلم إلى منطقة السند. والهند أو IND كما هو معروف بلد اشتهر بحضارته القديمة منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، وقد اكتشفت «آثار هذه الحضارة» ما بين عامي ١٩٢٢ و١٩٢٤ عندما تبين أن الهنود عرفوا غرف البيوت وتنظيم الشوارع والمراحيض، وصناعة الفخار، كما كانت لهم علاقات مع باقي الحضارات النهرية في الصين والعراق.

وقد تبين من خلال الحفريات التي بدأت في أوائل القرن العشرين أن حضارة وادي السند حضارة قديمة تعود لآلاف السنين قبل الميلاد، وهي تماثل حضارة السومريين في العراق أو وادي الرافدين، والحضارة المصرية والحضارة الصينية أو حضارة ما يعر ف بالمجتمعات النهرية. وكانت سنة ١٩٢٤ حاسمة، إذ دلت الحفريات التي شهدتها على مدى التقدم الحضاري الذي عرفته حضارة «موهنجودارو» كما اشتهرت في كتب التاريخ، وامتدت هذه الحضارة من السند حتى البنجاب، وبلوشستان، وقد عرفت حضارة «موهنجودارو» العجلة وتنظيم البيوت والطرق قبل وصول «الآريين» في القرن ١٨ قبل الميلاد وسيطرتهم على الشمال الهندي وتأسيسهم دولة أو دولاً في شمال الهند في القرن السادس قبل الميلاد. ثم وضعهم للنظام الطبقي أو نظام الطبقات المغلقة في

القرن الثاني الميلادي من طرف المشرّع مانو الذي عرف باسمه «سمرستي مانو» قانون مانو.

لكن ابن بطوطة لم يلاحظ الفروق الطبقية وسط الهندوس، كما أنه لم يدرس إحدى لغات الهند، بل تعلم الفارسية لغة البلاط التي كانت اللغة الرسمية في العهد الإسلامي ١١٩٣/ ١٨٥٧ لسلطنة دلهي ١١٩٣ - ١٥٢٦ ولدولة المغول ١٥٢٦ - ١٨٥٧.

وقد عرف سكان الهند - الدرافيد - حضارة ووجوداً حضارياً راقياً قبل دخول الآريين إلى الهند في القرن ١٨ قبل الميلاد، والذين جاؤوا من أوروبا باحثين عن مراع لأبقارهم وخيولهم، وأسسوا فيما بعد حضارة في شمال الهند، وعرفوا بثقافتهم التي عبرت عنها ملاحم «المهابهاراتا» و«الرامايانا» و«اليونشتياد» و«الفيدا». وأسسوا دولتهم ودفعوا بسكان الهند الأصليين إلى الجنوب. وابن بطوطة لم تكن له علاقة شخصية بالهندوس. وإنما هي بعض الإشارات إليهم في رحلته مثل تعيين محمد شاه أحد الهندوس في وظيفة رسمية وكان من «الحذاق في الحساب» أي الرياضيات، ومن المعروف أن الهنود عرفوا قبل غيرهم الأرقام وعلوم الفلك والعلوم الرياضية. كما لاحظ ابن بطوطة أن البلاط الهندي كان يضيف الهندوس، وأن استقبالهم - خاصة في الأعياد والمناسبات - باعتبارهم رعايا السلطان يتم بملاحظة من الحجاب بالمناداة «هداك الله»، بينما يستقبل المسلمون بالمناداة «بسم الله».

هدف الرحالة

كان هدف ابن بطوطة من الرحلة أداء مناسك الحج، ولم يرد فيما كتب أنه كان يعتزم زيارة أي من بلدان العالم القديم، على الرغم مما تمتعت به بعض مناطقه من شهرة في البلاد العربية وعلى رأسها الهند. والراجح أن فكرة السفر إلى الهند راودت ابن بطوطة وهو في الحجاز عندما التقى بحجاج من هذا البلد وسمع منهم ومن رحالة آخرين عن بلاد الهند وعن ظروف السفر إليها. فاستسلم لفضول الاستطلاع وهوى الاستمتاع، وإذا به ينال أيضاً من كرم السلطان الهندي ما لم يكن له فيه مطمع، وقد ذكر ذلك في ثلاثة مواضع من كتابه. ومن هنا يتبين أن الرحالة كان يفكر في السفر إلى الهند ليس رغبة في مال، بل متعة وفضولاً مستحباً. لما يثيره في النفس بلد كالهند مشهور لدى البلدان العربية، لذا فالراجح أن فكرة تنفيذ السفر إلى الهند ابتدأت لدى الرحالة وهو في الحجاز عندما التقى بحجاج من الهند والمناطق المتاخمة، وسمع منهم ومن رحالة آخرين عن ظروف السفر إلى الهند.

هذا ويشير ابن بطوطة في الجزء الأول من الرحلة إلى زيارته مدينة الإسكندرية، وإلى لقائه مع الولي الصالح برهان الدين الأعرج الذي ضيف الرحالة ثلاثة أيام، ونورد الحوار الذي دار بينه وبين الشيخ ونقتطف منه ما يلي:

برهان الدين: أراك تحب السياحة والجولان في البلاد.

ابن بطوطة: نعم إني أحب ذلك.

ولم يكن حينئذ قد خطر ببال الرحالة التوغل في «البلاد القاصية من الهند والصين». فقال له الشيخ برهان الدين «لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين، وأخي برهان الدين بالصين فإذا بلغتهم فأبلغهم السلام».

والواضح أنه رغم عشق الرحالة للسفر لم يخطر بباله الذهاب إلى البلاد البعيدة مثل الهند إلى أن خاطبه الشيخ برهان الدين الأعرج (أي أن الرحالة حتى قبل وصوله وأدائه مناسك الحج لم يكن في وارده الذهاب إلى الهند، إلى أن أوحى له الحديث مع الشيخ برهان الدين بالإسكندرية بذلك)، ومن المعروف أن ابن بطوطة كان يؤمن بكرامات الأولياء، وكان لا يفارق شيوخ الزوايا.. وقد أوعز إليه الشيخ بزيارة الهند والصين، ففعل بعد زيارته الحجاز وإيران والخليج العربي.

وفي نفس المرحلة الزمنية في مصر وبعد انتقال ابن بطوطة من الإسكندرية إلى قرية صغيرة على النيل تدعى «فوة» استقبله شيخ إحدى الزوايا وهو الشيخ أبو عبدالله المرشدي، ويروي ابن بطوطة أنه نام على سطح الزاوية وكان الزمن صيفاً، وحلم أنه يطير فوق مناطق خضراء ومظلمة. وبعد الصبح والصلاة أخبر شيخ الزاوية برؤياه فأكد له المرشدي «سوف تحج وتزور قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وتبقى بها مدة طويلة، وستلقى بها دل شاد الهندي ويخلصك من شدة تقع فيها».

هكذا بدأت تستقر في ذهن الرحالة فكرة السفر إلى الهند، وزاد

من رغبته فيه ما سمعه عن كرم السلطان محمد شاه الذي فاق كرم سلطان شيراز أبي إسحاق. كما وصف في رحلته التي قادته إلى بلاط السلطانين. تلك هي العوامل التي شجعت ابن بطوطة على اجتراح مغامرة السفر إلى الهند. حب الاستطلاع والإفادة من مخالطة العلماء والفقهاء وعامة الناس، وتقدير الأولياء وشيوخ الزوايا ورجالات الصوفية، من لدن شخص طيب المعشر حامل للقرآن الكريم، مواظب على الشعائر الدينية، فحظي بتقدير واحترام كل من قابلهم في رحلته، ووجد في إشراقات الأولياء والشيوخ عوناً على أهوالها، ولم يحل بينه وبين ما اعتزمه حائل.

في دولة المماليك

كان السلطان محمد شاه ١٣٢٥ - ١٣٥١ سلطان الهند الإسلامية في الفترة التي أقام فيها الرحالة بالهند. ومحمد شاه لقب اختاره بعد توليه العرش إثر وفاة والده غياث الدين تغلق في حادث غامض. وكان قبل توليه سلطنة دلهي يسمى فخر الدين أولوغ خان، ويعود نسبه من جهة والده إلى الأفغان، أما والدته فهندية. ويظهر أنه كان وحيد أمه، ولم تكن له حظوة كبيرة لدى والده الذي كان يؤثر عليه وعلى باقي إخوته من جهة الأب: ابنه محمود الذي قتل معه في الحادث الغامض. إلا أن ابن بطوطة يؤكد أن الحادث كان مدبراً من طرف أحمد بن إياس كبير الوزراء، وكان «شحنة العمارة» أو مسؤولاً عن العمران. بلغة العصر في عهد غياث

الدين، وكبير الوزراء في عهد محمد شاه الذي شيد «كشكاً» على شكل قصر لاستقبال السلطان غياث الدين بعد عودته من إحدى حروب البنغال. وبعد تقديم الفيلة أمام السلطان غياث الدين سقط البناء عليه وعلى ابنه الأثير محمود وقتلا معاً. ويضيف ابن بطوطة أن عملية الاغتيال قد تكون نفذت بعد سقوط البناء، إذ قيل إن السلطان رغم تأخر عملية الإنقاذ، وجد حياً وأجهز عليه. ولم يكتف السلطان محمد شاه بذلك فقد قتل زوجة أبيه وهي بنت السلطان علاء الدين، وابنها مسعود خان أخاه من جهة الأب الذي صار يشكل خطراً عليه بعد قتل أمه رجماً كما ذكر الرحالة. ومحمد شاه هو من سلاطين المماليك الذين بدأ حكمهم منذ تولى قطب الدين أيبك سلطنة دلهي. والمؤرخون الهنود - الهندوس - يطلقون على هذه المرحلة: مملكة دولة العبيد، إذ إن مفهوم المملوك باعتباره جندياً في نظام عسكري لخدمة السلطان لم يكن مفهوماً لديهم، بل يعتبرونه عبداً رغم الطابع العسكري لخدماته. غير أن المملوك يقع في درجة أعلى وأرقى من العبد رغم خضوعه لعملية الشراء. الذي قد يكون باختيار واقتراح المملوك نفسه بهدف التربية العسكرية والخدمة في الجيش. ويروي ابن بطوطة أن السلطان بلبن غياث الدين ١٢٦٦ - ١٢٩٠ كان ضمن المماليك الذين اشتراهم السلطان التامش بواسطة وكيل وعددهم مائة. وقد رفض السلطان التامش المملوك «بلبن» عندما استعرضهم في دلهي فسأل «بلبن» السلطان التامش: لماذا اشتريت هؤلاء؟ فقال: لأتخذهم لنفسي.

فقال له «بلبن»: اشترني لله. فكان الأمر كذلك، وصار سلطان الهند فيما بعد ودامت مدة حكمه ٢٠ عاماً. إلا أن المؤرخين الهنود غير المسلمين يصرون على تسمية هذه المرحلة ١١٩٣ - ١٥٢٦ بدولة العبيد أو مملكة العبيد.

ويروي ابن بطوطة أن سلطان الهند الإسلامية قطب الدين أيبك (١٢٠٦ - ١٢١٦م) استقل بسلطنة دلهي عندما اغتيل السلطان الغوري شهاب الدين في غزنة، وبعد وفاته تولى مملوكه شمس الدين التامش الحكم، إلا أن العلماء والفقهاء وعلى رأسهم وجيه الدين الكاساني جاؤوا إلى مجلس شمس الدين الذي كان نائب قطب الدين أيبك - ومملوكه - وجلسوا، ففهم شمس الدين جلوسهم في صمت، وتبسّم وأخذ من تحت سجادة عقد تحريره، وقرأه الفقيه الكاساني وتم إعلانه سلطاناً. إلا أن مسألة عقود التحرير لم ترد بعد ذلك عن باقي المماليك الذين صاروا سلاطين سلطنة دلهي الإسلامية، وقد روى ابن بطوطة عن السلاطين الذين جاؤوا بعد شمس الدين مؤسس السلطنة مروراً بابنته رضية وناصر الدين، وبلبن، وأسرة خلجي، وغياث الدين تغلق والد محمد شاه الذي عاصرت رحلته حكمه، لكنه لم يتكلم عن عقود العتق أو التحرير بالنسبة إلى باقي السلاطين، باستثناء ما تعلق بثاني سلطان على سلطنة دلهي، حين رفض الفقهاء بجلوسهم وصمتهم تنصيب شمس الدين إلا بعد أن أدلى بعقد عتقه أو تحريره. وتجدر الإشارة إلى أن تولي قطب الدين كان أيضاً بدون عقد تحرير، فهل اعتبروا موت السلطان المملوكي تحريراً لمملوكه الذي يخلفه؟

وفي المعجم أن «مملوك» وجمعها «مماليك» تعني «مملوك سيده»، وفي الفقه أن «المملكة هي التي تأخذ حريتها بمجرد وفاة سيدها». ويلاحظ المؤرخ الهندي روميش دات في كتابه «حضارة الهند» أن أسرة العبيد حكمت ما بين ١٢٠٦ - ١٥٢٦ و«أصبح قطب الدين في ١٢٠٦ ملك شمال الهند، وكان عبداً في بداية حياته»، ويؤكد أن ثلاثة قرون من حكم الأفغان للهند أدت إلى انتشار النفوذ الإسلامي وتأسيس ممالك مسلحة في الجنوب والبنغال. وأن تقلص نفوذ سلطنة دلهي لم يؤد إلى ضعف النفوذ الإسلامي، بل إلى تقويته عبر تأسيس إمارات إسلامية قوية جنوباً وشمالاً وغرباً، ورغم أن المؤرخين الهندوس نعتوا هذه المرحلة بدولة العبيد، فقد لاحظوا مدى الدور الذي قام به هؤلاء لنشر الإسلام بشكل مباشر أو غير مباشر عن طريق الزوايا، وإنشاء إمارات مستقلة وتوطيد الإسلام في شبه القارة الهندية، ونحن هنا نتكلم عن الهند التي كانت تضم باكستان وبنغلاديش وأجزاء من أفغانستان بالإضافة إلى الهند الحالية.

ومن المعروف أن الرقيق كان منتشراً لدى الديانات الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام. والأصل هو الحرية والمعاملة الحسنة، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام «شر الناس من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده» وفي القرآن الكريم ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ سورة الحجرات - الآية ١٠.

والملاحظ أن التطور التاريخي للدول الإسلامية أدى إلى تجاوز

مفهوم العبودية بمعنى الاسترقاق، فقد اضطرت الحاجة إلى جيش وحراس إلى اتخاذ أشخاص - ذكور - للتربية العسكرية فقط وللخدمة في جيش حرفي، وظهرت هذه الحاجة بعد تجاوز مرحلة التطوع في الجيوش الإسلامية، مما أدى إلى انتشار ظاهرة المماليك في مصر والهند وتركيا وغيرها أحياناً. إلا أن احتكار القوة والسلاح من طرف هذه الجيوش الحرفية أدى إلى سيطرتها على الحكم، إما لفراغ السلطة وإما لضعف الخليفة كما في مراحل العهد العباسي، حيث تحول المملوك العسكري إلى شخص آخر غير الرقيق المعهود في المنازل كالجواري والخصيان، وفي الأعمال الفلاحية وغيرها، لذلك كان للمماليك رغم طابع الاستملاك نظام خاص يتجاوز مفهوم الرقيق إلى كيان أو وجود عسكري، يحظى باحترام استثنائي تقديراً لكون المرحلة مرحلة القوة واستخدام السلاح، وهو ما تؤهل إليه التربية العسكرية.

رضية شمس الدين

كتب الرحالة ابن بطوطة معلومات قيمة عن الدولة الإسلامية الأولى في الهند، أو ما يعرف لدى المؤرخين بـ«سلطنة دلهي»، واعتمد فيما كتب على القاضي كمال الدين المقرب من بلاط السلطان محمد شاه. ورغم أن الدراسات حول تاريخ سلطنة دلهي الإسلامية وفيرة، إلا أن ابن بطوطة استقى من القاضي أخبار القصر، فأكد أن غياث الدين تغلق مات في حادث، وأن المكلف

بالعمارة - البناء - في عهد هذا السلطان والذي أصبح كبير الوزراء أحمد بن إياس، وعند البعض بن إياز وأصله رومي، هو الذي أشرف على عملية الاغتيال. كما أخبرنا الرحالة أن الشيخ الولي نظام الدين لم يكن على عداء ظاهر مع السلطان غياث الدين، وإن كان أهم شخصية صوفية في عهده. وليس هناك ما يؤكد زعم بعض المؤرخين أنه تآمر مع الملك محمد شاه لاغتيال السلطان غياث الدين، يقطع بذلك وفاته قبل حادث الاغتيال. كذلك أبلغنا الرحالة أن السلطانة رضية بنت شمس الدين التامش التي حكمت لمدة أربع سنوات لم تعدم بعد عزلها من السلطنة كما ذكر بعض المؤرخين، بل تم عزلها وثارت مع زوجها فيما بعد ضد شقيقها السلطان ناصر الدين و«من تبعه من أهل الفساد» حسب تعبير الرحالة، وأنها قتلت بعد هزيمتها وهروبها من طرف فلاح اعترض سبيلها دون أن يتعرف إليها، ثم ضبط أثناء بيع ثيابها ومصوغاتها. وأن السلطات نقلت الجثمان من الحقل حيث قتلت. إلى مقبرة خاصة على نهر «جامنا»، وقد زار الرحالة ضريحها الذي يقع على بعد ١٠ كلم من مدينة دلهي القديمة التي تقع خرائبها على بعد ٣٠ كلم من دلهي الحالية، إذ إن ما تبقى من آثار دلهي التي عاش فيها ابن بطوطة مجرد آثار مهدمة، فالمسجد الذي تحدث عنه الرحالة لا وجود له اليوم، كذلك المقابر والقصور والأضرحة فقدت معالمها ولم تبق إلا الصومعة «منار قطب» التي كان صعد لأعلاها وعمود الحديد الذي أحاطه بعمامته. ومن المعروف أن اهتمام الهنود بالآثار

- مثل أغلب البلدان - لم يبدأ إلا في العقود الأخيرة بعد أن ضاع جلها نتيجة الإهمال وعوامل الزمن وانعدام الصيانة والحراسة، وربما الصراع بين المسلمين والهندوس وبين العائلات الحاكمة. لقد ضاعت الكثير من معالم دلهي التي أقام فيها الرحالة. أما مدينة دلهي الحالية. فقد شيدها السلطان المغولي محمد شهاب الدين، أو شاه جاهان «ملك الدنيا» ١٦٢٧ - ١٦٥٧ الذي شيد «تاج محل»، أو تاج القصور واستغرق بناؤه ما بين ١٦٣٢ - ١٦٥٣، وهو الضريح الذي ضم رفات زوجته ممتاز محل (فاتنة القصر) ودفن إلى جوارها بعد وفاته في ١٦٦٦ وتاج محل هذا الذي يعتبر أهم عجائب الدنيا السبع، كاد يباع حجارة ورخاماً من طرف حاكم إنجليزي يدعى وليم بنتك أثناء مرحلة استعمار إنجلترا للهند ١٨٥٧ - ١٩٤٧، ولا شك أن قدسيته كضريح والخوف من ثورة ضد هدمه هي التي منعت كارثة إنسانية وتاريخية كادت تضيع أحد أهم المعالم الإنسانية على الأرض. وقد سبق للإنجليز تدمير القلعة الحمراء وغيرها من معالم دلهي الإسلامية في ثورة ١٨٥٧ ضد الوجود الإنجليزي التي قادها آخر إمبراطور مسلم ظفر «شاه» (الملك الظافر).

الفتوحات الأولى

كان الإسلام قد عرف طريقه إلى الهند عبر غزوتين؛ الأولى في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في ٢٣هـ - ٦٤٤م، والثانية في عهد الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في ٣٨هـ - ٦٨٩م،

لكن لم يكن لكلتا الغزوتين أهمية، لأنهما لم تهيأ بشكل جيد، فكانت طلائع أكثر منها غزوات، إلا أن أهم غزوة هي التي قادها محمد بن القاسم الثقفي عام ٧١١م في خلافة عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك، واستمرت من ٧١١ إلى ٧١٥ اتجهت إلى المناطق السندية «في باكستان حالياً»، وتم خلالها تأسيس مدينة جديدة هي المنصورة. وتمت السيطرة على أهم مدينة في السند «مولتان»، إلا أن عزل محمد بن القاسم الثقفي من جهة وهزيمة بني أمية ووصول العباسيين إلى السلطة التي تحولت من دمشق إلى بغداد والخلافات بين المسلمين في الهند، أدت إلى عدم تقدم الفتح الإسلامي هناك في هذه المرحلة عن طريق الفتوحات العربية.

وحسب البعض فإن صرخة امرأة مسلمة وصلت إلى مسامع الخليفة الأموي هي التي أدت إلى بداية الفتح الإسلامي العربي هناك.

وهناك من يرى أن السبب هو القراصنة وقطاع الطرق الذين منعوا التجارة في المنطقة نتيجة سرقاتهم. بينما يرجعه البعض إلى الاستيلاء على باخرة عربية في ميناء ديوان الهندي. وقد تكون هذه الأسباب أو أحدها أثارت انتباه السلطات، لكن الفتح الإسلامي بغرض نشر الدين كان من أهم أهداف الإسلام منذ ظهوره، مع العلم أن التجار المسلمين لعبوا دوراً ريادياً في نشر الإسلام في الهند قبل الفتوحات.

السلطان الغزنوي محمود

بالعودة إلى تاريخ الفتوحات الإسلامية للهند وإلى أهميتها، فقد بدأت منذ سنة ٧١١م إلى ٧١٥م. تحت قيادة محمد بن القاسم الثقفي عندما سيطر المسلمون على منطقة السند وجزء من منطقة البنجاب، واستعانوا بالأطر الوطنية التي اعتنقت الإسلام، إلا أن استدعاء محمد بن القاسم إلى دمشق ووفاته بعد ذلك أدى إلى توقف الفتح على حدود كشمير، وإلى نزاعات عدة وصراعات بين الأطراف الإسلامية، مما أدى إلى عودة كثير من الأراضي التي تم فتحها إلى السيطرة الهندوسية. إلا أن غزنة الأفغانية بقيادة السلطان محمود بن سبتكيكين ستغير الأوضاع، ففور صعود السلطان محمود إلى منصب السلطان بعد وفاة والده سبتكيكين في عام ٩٩٧م سيبدأ تاريخ جديد من الفتوحات الإسلامية الأفغانية.

انطلق السلطان محمود إلى الأراضي الهندية ودامت غزواته من سنة ١٠٠٠ إلى ١٠٣٠م تاريخ وفاته، واصطحب معه العلماء والفقهاء، وعلى رأسهم أبو الريحان البيروني، إلا أن البعض يؤكد أن غزوات السلطان محمود للهند كانت من ١٠٠٠ إلى ١٠١٢ فقط، حيث نقل اهتمامه لفارس، وقد وضع البيروني كتابه الموسوعي «تحقيق ما للهند من قيمة مرذولة للعقل أو مقبولة»، وكتب أخرى أثناء حملات السلطان محمود حين كان ضمن حاشيته.

لقد انتقد البعض من الهندوس خاصة ومن بعض المؤرخين والبحاثة الغربيين السلطان محموداً على اعتبار أن غزواته كانت

من أجل المال فقط، لكن هذا غير صحيح خصوصاً في الظرفية التاريخية لفتوحات هذا السلطان. لقد كان الأمر يتعلق بتأسيس مجتمع جديد وكانت الأموال تصرف على نفس البلد ولنفس الغرض. ولا تتعدى النصوص الشرعية وكان يرافقه في كل فتوحاته «مجلس» من الفقهاء والعلماء للتوجيه والاستشارة، هذا وكانت وفاة السلطان محمود في ١٠٣٠م وصعود بعض السلاطين الضعفاء في غزنة إيذاناً بتوقــف الفتوحات حتى عهد السلطان شهاب الدين الغوري الذي أنهى سلالة محمود الغزنوي، حينئذ بدأت مرحلة جديدة من الفتح الإسلامي للهند عندما استطاع قائد الجيش الغوري قطب الدين أيبك في ١١٨٦م السيطرة على لاهور، ثم في ١١٩٣ السيطرة على دلهي. وكانت هذه المرحلة إيذاناً باستقرار دائم للجيش الإسلامي بسلطنة دلهي في المنطقة. وبعد اغتيال السلطان شهاب الدين الغوري سنة ١٢٠٦ انفرد قطب الدين أيبك بحكم الهند حتى وفاته عام ١٢١٦. كان أيبك قد خلف ابنه «أرم» إلا أن التامش الذي كانت له سلطة واسعة على الجيش تولى المنصب السلطاني وعزل ابن قطب الدين أيبك، وحضر العلماء والفقهاء مجلسه كما سبق ذكره، وأظهر عقد عتقه بين أيديهم ثم تولى منصب السلطان، وأسس عائلة حاكمة، ولم يعرف مصير ابن قطب الدين أيبك، كما أن ابن بطوطة لم يشر إليه. أسس التامش عائلة ملكية تولت الحكم بعد وفاته، وبعد حاكمين ضعيفين من سلاطينها تولت الملكة رضية بنت شمس

الدين لأربع سنوات من ١٢٣٦ إلى ١٢٤٠، لكنها عزلت بعد اتهامها بعلاقة غير شرعية، وتولى أخوها ناصر الدين لمدة عشرين سنة من ١٢٤٦ إلى ١٢٦٦ وعزل واغتيل من طرف نائبه وصهره غياث الدين بلبن الذي صار سلطاناً على الهند. وكان عهده عهد حرب وتوسع حتى وفاته عام ١٢٨٧، وصار ابنه محمود سلطاناً لمدة ثلاث سنوات، وقد عجز عن ممارسة السلطة وتعرض لانقلاب من طرف جلال الدين الخلجي الذي تعرض هو الآخر لانقلاب، وبعد مقتله تولى المنصب علاء الدين الخلجي الذي توفي في ١٣١٦، وتولى منصب السلطة قطب الدين الخلجي الذي قتل بعد أربع سنوات في ١٣٢٠ من طرف خسروخان الذي صار سلطاناً لبضعة أشهر قبل أن يتغلب عليه غياث الدين تغلق الذي صار سلطاناً من ١٣٢٠ إلى غاية ١٣٢٥ عندما قتل في حادث سقوط بناء عليه، - كما سلف - وتولى المنصب السلطاني ابنه محمد شاه تغلق الذي عاش في بلاطه ابن بطوطة حوالي ثماني سنوات، حيث غادر ابن بطوطة الهند في حوالي ١٣٤٢، ولا يزال محمد شاه - الذي توفي في ١٣٥١ - سلطاناً عليها. وقد تولى السلطنة بعده ابن عمه فيروز، الذي أشار إليه الرحالة عدة مرات في الرحلة بعد الإشارة إلى أخ السلطان محمد شاه مبارك خان وابن أخيه بهرام خان، ثم يليهما من حيث الأهمية فيروز أو حاجب فيروز «ملك فيروز» كما سماه في كل مرة. ومن الملاحظ أن الرحالة تحدث عن السلطان محمد شاه من كل الجوانب:

اللباس، الطعام، الجلوس، الكرم، القساوة، الحروب، إلا أنه لم يشر إلى أبناء السلطان، وقد ذكر المؤرخون أنه لم يكن للسلطان أبناء، وأن أحمد بن إياس كبير وزرائه الذي عارض تولي ابن عمه فيروز، عمد إلى تولية طفل صغير، زعم أنه ابن السلطان، لكن الأمر انتهى بإعدامه، وعزل الطفل الصغير وتولي فيروز منصب السلطان.

الساتي

من الظواهر الغريبة التي أثارت ابن بطوطة بعد وصوله إلى السند والبنجاب عادة «الساتي»، وهي إحراق الأرملة نفسها مع جثمان زوجها أو بعد وفاته. وكان ألم وذهول الرحالة عظيمين وهو يشاهد عملية «انتحار» الأرامل الهندوس. وقد أشار إلى أن إحراق الأرملة الهندوسية نفسها في المناطق الإسلامية لا يكون إلا بإذن الحاكم. وأن عملية الإحراق «مندوب إليها»، أي أنها اختيارية من طرف الأرملة التي تكتسب عائلتها احتراماً وتقديراً من طرف المجتمع لقيامها بإحدى صور الوفاء الخالصة. وعادة «الساتي» كما تسمى عند الهندوس دخيلة على العقيدة الهندوسية. فمن المعروف أن الكتب الهندوسية الأولى أشارت إلى ذلك مثل «الريج فيدا» وهو أحد أقدم الكتب/ الترانيم الهندوسية ويعود للعصر الفيدي أو عصر المعرفة. «والريج فيدا» هو الكتاب الأقدم الذي

يتوفر على ١٠٢٨ ترنيمة أو حكمة، ويضع شروط الحياة الدينية التي يحتذيها الهندوسي التقي في المأكل، والمشرب، والجلوس، والزواج، والموت. كما تصف هذه الترانيم الشعرية كيف كانت حياة الناس في تلك الفترة السحيقة التي تعود إلى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة. وعن الأرملة تقول ترنيمة «الريج فيدا»: «قومي وعودي إلى عالم الأحياء أيتها المرأة، إن من تنامين إلى جانبه قد رحل عن الحياة، اقبلي بالزواج ممن يريد الزواج بك ويطلب يدك». مما يدل على أن عادة «الساتي» دخيلة على الهندوس، وأن الهدف منها اقتصادي بالأساس واجتماعي أيضاً، ذلك أن المرأة في العقيدة الهندوسية هي التي تعطي الصداق للرجل وعندما يموت زوجها خصوصاً وهي لاتزال شابة تصبح عالة على أهلها وعلى أهل زوجها المتوفى، كما تشكل «خطراً» اجتماعياً بالنسبة إلى الأزواج، ومع توالي الأعوام والأزمات الاقتصادية انتشر الاعتقاد بكون الأرملة قد تكون طالع نحس على زوجها الشاب الميت فتم دفعها بطريقة أو أخرى لنهج عملية الانتحار بالنار. والنار عند الهندوس طهارة للجسد المذنب الملوث الذي لا يجب أن يدفن في الأرض الطاهرة، بل يحرق لأنه مجرد وعاء قابل للتجدد مرة أخرى عن طريق الروح التي تنتقل إلى جسد أطيب أو إلى حجر أو حيوان حسب أعمال هذا الجسد في الحياة السابقة، وهو ما يسمى «الكارما»، بل إن الهندوسية تعاقب على التفكير في الذنوب، وكل هذا حدث في العصور الحديثة لتطور الهندوسية،

و«الحديثة» هنا تعني قبل الميلاد بمئات السنين أو بعد الميلاد بمائة سنة عندما وضع مانو تشريعه الطبقي الذي أدى إلى تقسيم الهندوس إلى الطبقات الأربع المغلقة.

وعادة «الساتي» منعت منذ القرن ١٩ في الهند بعد أن قاد المفكر الهندي موهان روي معركة كبيرة من أجل ذلك. وقد حضر ابن بطوطة عملية إحراق ثلاث أرامل أنفسهن بعد وفاة أزواجهن في قتال. وقد قضين ثلاثة أيام في فرح وتصدقن بما لديهن ورمين أنفسهن في وهج النار على صوت الأطبال والأبواق والأنفار حتى لا يسمع صراخهن.

ولاحظ ابن بطوطة أيضاً أن بعض الرجال يغرق نفسه في نهر «الكنك» وهو أحد نهرين مقدسين بالهند (كنكا وجمنا) يلتقيان في موقع يسمى «سانجام» التي تعني «الاتحاد» وتحمل دلالة روحانية. ينبع هذا النهر من جبال الهمالايا، وتقع ضفته المقدسة في مدينة «بيناريس»، وفيه يتم إلقاء رماد الموتى. وتحكي الأسطورة أن ملك جبال الهمالايا حزن بسبب الجفاف الذي ضرب سهول الهند، فقررت ابنته «كنكا» أن تضحي بنفسها فذابت وصارت مياهاً تروي مزارع الهند وسكانها.

وقد سمع ابن بطوطة وشاهد بعض الهندوس ينتحرون في النهر من أجل «كساي» الذي هو الإله بلسانهم، كما جاء في الرحلة. وبعد وفاة الغريق يتم إحراق جثته وذرّ رمادها في «البحر» المذكور أي «الكنك».

وهناك إلهان في الهندوسية يتوفر في اسمهما حرف الكاف: كريشنا وهو الإله الذي تجسد في ملحمة «المهابهاراتا» في سائق عربة وظهر في تجسيدات أخرى مثل فيشنو؛ والإلهة كالي إلهة الشر والدمار وهي إلهة الجنوب، حيث شعب التاميل سكان الهند الأقدمين، وعندما جاء الآريون سكنوا شمال الهند وأبدعوا الهندوسية، وفيما بعد دمجوا آلهة وعقائد الجنوب في عقيدتهم. مادام ابن بطوطة عاش في الشمال الهندي. وكريشنا أهم إله في العقيدة الهندوسية، فالأرجح أن المقصود بكساي كريشنا. والأمر يتعلق بتصحيف للاسم ليس إلا.

الموت في الهندوسية

لفلسفة الموت وتناسخ الأرواح في العقيدة الهندوسية معان خاصة، ونجد تفسيراً في كتاب الأوبانشيدات (أو الجلوس قرب الأستاذ)، ويقول واضعو هذا الكتاب المقدس عند الهندوس: «كما يعدل الصائغ قطعة الذهب ويحولها إلى شكل جديد أكثر جمالاً، كذلك تتحول الروح بعد أن تترك الجسد، وتتحرر من الجهل وتتخذ لنفسها شكلاً أكثر جمالاً بالنسبة للذي يرغب...»، لذلك فالجسد مجرد قيد للروح، وعمل الإنسان هو الذي يحدد الشكل الجميل المقبل للروح. والموت ليس إلا مرحلة للتحرر من هذا الجسد الفاني الذي يكون قيداً وعذاباً، لذلك فالموت إحراقاً أو إغراقاً أو بشكل طبيعي ليس إلا نقلة إلى جسد أروع حسب أعمال الإنسان في

حياته، لأن الله يمنح الإنسان فرصاً لحيوات عدة، ولما كانت هذه الحياة تلو الحياة مجرد تكرار ممل وألم فإن الإنسان العظيم قد تنتقل روحه وتندمج في الذات العليا (النرفانا)، وقد تأثرت الصوفية الإسلامية التي انطلقت أصلاً من الهند بالمعتقدات الهندوسية، خاصة وحدة الوجود والسبحة والموسيقى، والجدب، والخرقة، ولعبت الصوفية الدور الأهم في نشر الإسلام في الهند، لعنايتها بالناس والمساواة بينهم وجعل الطعام «للوارد والصادر» كما ينعته ابن بطوطة، وكان للزوايا تأثير هائل، إذ لم تكن تميز بين الأديان في الاستقبال، ولشيوخها مواقف عظيمة في مواجهة التعسف والظلم، روى الرحالة بعض نماذجها حتى في مواجهة السلاطين.

لم يهتم ابن بطوطة بالعقائد الهندوسية وما تفرع عنها كالجانتية والبوذية، ومن المعروف أن «جنا» وتعني القاهر للملذات مذهب نادى به «مهافيرا» ٥٤٩ - ٤٧٧ ق.م الذي انتحر جوعاً.

ولم يتعمق الرحالة في شرح المذهب الأهم: البوذية الذي جاء به بوذا: ٥٥١ - ٤٦٩ ق. م. وكلا المذهبين هدف لإصلاح الهندوسية. إلا أن الرحالة لم يلاحظ الفروق بينها، لأنه كما أشرنا سابقاً لم يهتم بذلك، والأمر راجع لطبيعته وعقيدته الدينية اللتين منعتاه تلقائياً من البحث في عقائد الآخرين «الكافرة»، فقد أشار إلى الأصنام وإلى الموت حرقاً بالنسبة إلى الأرامل والموت غرقاً في الأنهار المقدسة وإحراق جثامين الموتى. ولم يشر إلى طائفة الزرادشتيين التي غادرت فارس في القرن السادس الميلادي نحو الهند.

وكانوا ولا يزالون يطرحون جثامين موتاهم نهشاً للجوارح خاصة العقاب، ويسمون ذلك «القبور في حواصل الطيور»، لأنهم يعتبرون الأرض طاهرة والأجساد ملوثة. والزرادشتيون طائفة مغلقة ظلت تتناقص حتى باتت على أبواب الانقراض، وهي أغنى الطوائف الهندية، ولا شك أن الرحالة لم ينتبه إلى هذه الطائفة كما لم ينتبه إلى طوائف الهندوس الأخرى، وإلى الطبقات المغلقة في العقيدة الهندوسية، نظراً لطبيعته - كما أسلفنا - ، ولعقيدته ولنفوره الشخصي من عقائد غريبة بالنسبة إليه. كذلك لم يكتب عن المسيحيين في الهند، ومن المعروف أن المسيحية دخلت الهند في عام ٥٤ على يد القديس توما، إلا أنها لم تعرف انتشاراً حتى سيطرة البرتغال والإنجليز على بعض مناطق الهند مثل «غوا» غرباً وبعض مناطق البنغال في عهد السلطان محمد جلال الدين أكبر ١٥٥٦ - ١٦٠٥، مع العلم أن ابن بطوطة تحدث عن اليهود والمسيحيين في بعض البلدان قبل وصوله إلى الهند. وربما يكون السبب أن ابن بطوطة لم يلفت انتباهه وجود بيّن لمعتنقي هاتين الديانتين، إما لندرة انتشارهم وإما لعدم زيارته أماكن وجودهم.

كرم السلطان الهندي

كتب الرحالة في الجزء الأول من الرحلة عن وصوله إلى شيراز، وقارن بين كرم سلطان شيراز أبي إسحاق، وكرم السلطان الهندي محمد شاه، وأكد أن كرم السلطان أبي إسحاق لا يوازي عشر كرم

السلطان محمد شاه؛ وفي الجزء الثاني من الرحلة شرح بتفصيل مظاهر كرم السلطان الخارق للمألوف، ومنها قيامه مرة بوزن شخص بثيابه ذهباً وكان الوزن أو ما يوازيه حوالي ١٠٠ كيلوغرام، كما تحدث عن القصيدة الفارسية التي ألقيت من طرف شاعر في البلاط الهندي وكافأ السلطان الشاعر بألف دينار عن كل بيت. وكان عدد أبياتها ٢٧ بيتاً. وعن إكرامه للناس العاديين ذكر أن السلطان عند عودته من رحلاته البعيدة عن العاصمة دلهي كان يضع رعادات على الفيلة ترمي الدنانير، والجماهير المستقبلة تلتقطها.

وقد أقسم ابن بطوطة مرتين على ذلك ليدفع شكوك أهل المغرب فيما يقول، وأكد أن مناقب هذا السلطان في الكرم معروفة في الشرق. ولم يبدر من الرحالة القسم على شيء مما رواه في رحلته إلا عندما تحدث عن كرم السلطان. فكثيراً ما كان يقول «ويعلم الله صدق ما أقول»، ويوثق الحكايات التي رواها عن السلطان في الكرم بالأسماء والأشخاص والأسباب. وهي حكايات لا تبدو غريبة إلا أن الناس عادة لا يصدقون إلا ما يعيشونه.

وقد كتب ابن خلدون الذي عاصر الرحالة في «العبر» جزءاً من الحكايات التي رواها ابن بطوطة عن كرم السلطان الهندي الخارق للعادة. وروى ابن خلدون لقاءه بالوزير فارس بن ودرار الذي ناقشه فيما كتب عن الكرم في رحلته. وكان للوزير رأي في قصة الوزير السجين مع ابنه الصغير، إذ يحاول الوزير - نظراً لظروف السجن - أن يعرف ابنه بالحياة خارج السجن، فيحكي له عن البقرة فيقول

الابن الصغير: هل هي مثل الفأر، لأنه لم ير سواه. وهذه الحكاية تدل على أن الإنسان يجب ألا يكذب ما لا يعرفه أو يعيشه.

ومثلما كان الناس يكذبون كرم السلطان الهندي، لأنهم يعتقدون أن الجميع يعيش على شاكلتهم، كان الذين لا يعرفون للثياب مصدراً غير صوف أو وبر الحيوان لا يصدقون أن الأثواب قد تأتي من زراعة القطن، مما اضطر الرحالة إلى القسم مرتين، فقد كان محرجاً له أن يواجه التكذيب من سامعيه قبل قرائه، أما الملوك السابقون لمحمد شاه فلا يذكر شيئاً عن كرمهم، لأن منهم من كان يعيش بعمله مثل السلطان محمود ١٢٤٠ - ١٢٦٠ الذي كان ينسخ بيده القرآن الكريم ويبيع النسخ لكسب العيش، والسلطان علاء الدين ١٢٩٦ - ١٣١٦ الذي كان يهتم بالاقتصاد، وتحديد أثمنة السلع ومنافسة التجار إذا ما زادوا في الأسعار، فكان يبيع سلع الحكومة لتخفيضها. لذلك امتاز عهد محمد شاه بالكرم والعناية بالعلماء والفقهاء، وبالقسوة الشديدة تجاه الخصوم ومرتكبي الجنايات. وربما كانت الميزة الأخيرة مشتركة بين ملوك سلطنة دلهي ١١٩٣ - ١٥٢٦. فقد كان المعارضون كثراً، سواء من الهندوس أو من المسلمين، بالإضافة إلى الخطر الذي تشكله الحاشية ؛ وكانت الطاعة المطلقة مطلوبة. لذلك تم سن قانون البلطة والجزرة، فكان الكرم بلا حدود والعقاب أيضاً بلا حدود. وقد روى ابن بطوطة قصصاً مرعبة عن عمليات القتل والإعدام والخازوق والسلخ والتعذيب التي كانت تمارس ضد المعارضين والانقلابيين

وخصوم النظام، يوازيها كرم السلطان الخارق للمعتاد كما وصفه الرحالة الذي لاحظ عندما وصل دلهي أنها كانت شبه فارغة، ويعزو السبب إلى كون السلطان محمد شاه اشترى من جميع السكان منازلهم ومحلاتهم؛ لكونهم كانوا يرمون رقاعاً «عرائض» ضده في جوانب القصر، وانتقاماً منهم اشترى دورهم وأمرهم بالرحيل إلى مدينة دولت أباد (= دويقير) وتقع على مسافة ٤٠ يوماً من دلهي. ويروي أن الحراس وجدوا شخصين؛ معاقاً وأعمى في أحد أزقة دلهي لم يغادراها فسحلوهما بالخيل إلى مدينة دولت أباد لتخلفهما عن الرحيل. والأمر يرد إلى كون محمد شاه أمر بإنشاء عاصمة جديدة في دولت أباد بدلاً من دلهي لكون جميع ملوك سلطنة دلهي كانوا يخشون هجوم المغول الذين كانوا يهددون السلطنة، ويهاجمونها في مناطق السند والبنجاب، وكانت دلهي قريبة نسبياً منها، ولذا حاول محمد شاه نقل العاصمة بعيداً عن دلهي حتى لا تتعرض للاحتلال الذي صار حقيقة واقعة في ١٣٩٨ على يد تيمورلنك ثم في ١٥٢٦ على يد زهير الدين بابور، إلا أن محمد شاه لم ينجح في نقل العاصمة إلى دولت أباد رغم كل الإغراءات والمحاولات، وبقيت دلهي عاصمة لسلطنة دلهي الإسلامية ولدولة المغول فيما بعد. ومن المعروف أن العواصم عادة تتوسط البلاد حتى تتحكم الدولة في جميع المناطق وتحصنها ضد العدو، وفي الزمن القديم كانت العواصم تقع في البر بعيداً عن الحدود، وعن البحر. لقد أخفق محمد شاه في مسعاه بسبب الانسجام الحاصل

بين سكان دلهي ونواحيها، ونظراً للبعد التاريخي والمعنوي للمدينة ولمحيطها الزراعي والاقتصادي والاجتماعي، كل هذه العوامل تغلبت على رغبة السلطان المعززة بالنفوذ والمال. ونقل العاصمة وما تبعه من مآس استأثر باهتمام الرحالة، فقد عاش مع السلطان معارك وحروباً عديدة في مواجهة الثائرين عليه، بل وشارك فيها. ورأى مقتل الخصوم بكل الأساليب، بما فيها القتل بالفيلة. وهي أفيال تتعلم القتل ولها في خراطيمها «حدائد مسنونة» ترمي بها الشخص المستهدف وتقطعه حسب أوامر الفيال. وكان الإعدام بهذه الطريقة يتم على مرأى من الناس بهدف إدخال الرعب في قلوب الجماهير حتى لا يعارضوا النظام مستقبلاً. فالهدف من العقاب منع الآخرين من ارتكاب المخالفة، وهو الغاية من فلسفة العقاب مهما كان عصرها، أو شرعيتها من عدمها. ورغم أن الرحالة انتقد ضمنياً أحياناً وصراحة أحياناً أخرى طرق إعدام المخالفين. إلا أنه لا يذكر أبدا إجراء أي محاكمة للمخالفين، فتطبيق العقوبات كان يتم بأمر السلطان. ولا تدخل هذه المخالفات في اختصاص القضاء كما يظهر، فالقضاة ينظرون فقط في النزاعات المالية أو العقارية. إلا أنه يحكي عن صهر السلطان الذي كان صديقاً له وهو من الشام وزوج أخت السلطان، اعتدى على أحد حجاب الملك فأحاله السلطان إلى القاضي ليحكم في شأنه، وهو أمر نادر الحدوث.

هناك مؤرخ آخر كان نديماً للسلطان محمد شاه هو ضياء الدين برني ١٢٨٥ - ١٣٥٧ الذي عاش ملازماً للسلطان ١٧ عاماً،

وكتب عن هذه المرحلة ولم يخف فيما كتب انتقاده أعمال محمد شاه ضد المسلمين.

وكان برني أحد أهم جلساء (= ندماء) السلطان إلا أن ابن بطوطة لا يشير إليه، بل إلى نديم آخر كان له «الحظوة التامة»، كما كتب الرحالة لدى السلطان. وكان صديقاً للرحالة واسمه طاهر الدين الأهروي.

وبالرجوع إلى يوميات ضياء الدين برني نجد أنه كان يعارض وجود الأجانب في بلاط السلطان محمد شاه، لأنهم جاؤوا للهند بعد أن سمعوا عن كرم السلطان وهداياه، وكان هدفهم أخذ المال والرجوع إلى بلدانهم ليس إلا. وربما كان هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل السلطان يمنع دخولهم إلا بشرط الإقامة الدائمة.

لقد لاحظ الرحالة أن هناك خواص السلطان الذين تربطهم به علاقة صداقة ومجالسة، وسماره في المجالس الخاصة، إلا أنه لم يذكر منهم بالاسم إلا طاهر الديـن الأهروي. وقد لعب هذا الأخير دوراً مهماً في تسهيل إقامة ابن بطوطة في الهند، خصوصاً أداء ديون كانت عليه، وقد اتهم البعض ابن بطوطة بأن تأريخه لعهد السلطان محمد شاه كان متأثراً بالكرم الذي أغدق عليه، سواء في أداء الديون، أو في تعيينه قاضياً، أو تكليفه بتسيير مقبرة السلطان قطب مبارك ١٣١٦ - ١٣٢٠.

لقد أكد ابن بطوطة أن سلطان المستقبل محمد شاه حمل الولي نظام الدين شيخ الزاوية الشيشتية. وقال له هذا الأخير

«وهبناك ملك الهند»، وكان والد محمد شاه السلطان غياث الدين تغلق ١٣٢٠ - ١٣٢٥ في منطقة البنغال في حملة ضد ثائرين عليه بعيداً عن العاصمة دلهي، وذكر أن الشيخ الولي نظام الدين توفي بعد ذلك. إلا أن المصادر التاريخية تؤكد أن الشيخ نظام الدين الذي عمر طويلاً توفي بعد تولي محمد شاه السلطنة ببضعة أشهر في ١٣٢٥ في نفس السنة التي مات فيها غياث الدين والده. وحكاية دعاء الشيخ نظام الدين لمحمد شاه بملك الهند تكررت أيضاً من طرف شيخ للزاوية نفسها، لفيروز ابن عمه الذي تولى الملك ما بين ١٣٥١ - ١٣٨٨، وقد تكررت مع ملوك آخرين نظراً للعلاقة التي ربطت بين الزوايا والشعب الذي كان يكن لشيوخ الزوايا تقديراً خاصاً. ولهم كرامات في رأي الناس، فأمام تعسف السلطة هرب الناس إلى الزوايا، وتركوا الشأن العام وارتاحوا مع شيوخهم في هذه التكايا التي كانت ملاذاً نفسياً واجتماعياً.

وقد تميزت الزاوية الشيشتية في الهند برفض رجالاتها العمل في وظائف الحكومة، ولما كان محمد شاه الذي لقب كما يؤكد ابن بطوطة بأبي المجاهد، يحتج على شيوخ الزوايا بأن السلف الصالح كان يستعين برجال الدين في العمل، فقد حاول مع الشيخ شهاب الدين الخراساني للعمل في أحد أعمال الحكومة، إلا أن الشيخ رفض وأكد أنه لن يعمل مع «ظالم مثل محمد شاه»، وقد قتل الشيخ بعد إضرابه عن الطعام، وسقي بالقوة «العذرة» من طرف المكلفين

وهم جماعة من «الكفار» كما كتب الرحالة، وكان «الهندوس» عادة هم المكلفون بالتعذيب والقتل.

وعلى كثرة من هم من خاصة السلطان وجلسائه فإن ابن بطوطة اكتفى بالحديث عن مكانتهم ودورهم دون ذكر أسمائهم، فمنهم شاعر البلاط بدري تشاتش الذي كتب قصائد عديدة عن المعارك التي خاضها السلطان محمد شاه. ومنهم مؤرخ السلطان ضياء الدين برني الذي أرخ لعهد السلطان محمد شاه وللمرحلة كلها حتى عهد فيروز شـاه تغلق (١٣٥١ - ١٣٨٨). ويظهر أن ضياء الدين برني، كما يلاحظ من كتاباته، كان يكره الغربـاء (أي الأجانب بلغة العصر) ويعتبرهم طالبي أموال سرعان ما «يهربون» بمجرد حصولهم على عطاء السلطان وهداياه، لكنه تراجع عن ذلك بعد وفاة السلطان محمد شاه وانتقد العقوبات ضد المسلمين والأولياء والصالحين، كما انتقد تخريب دلهي. وقد أجمع ابن بطوطة وضياء الدين برني معاً على الإشادة بكرم السلطان محمد شاه وبجهده لأجل نشر الإسلام، وحرصه على تطبيق الشرائع.

ورغم حديث ابن بطوطة المتكرر عن خاصة السلطان وعن جلسات «الجوكية» أي ممارسي اليوغا، وجلسات الخدع السحرية التي كانوا يحضرونها مع السلطان، وأيضـاً عن «الطعام الخاص»، أي جلسات الغداء والعشاء التي كانوا يشهدونها معه، فإنه لم يذكر من الأسماء إلا واحداً منهم كان صاحبه هو الهروي الذي قال ابن بطوطة إن له «حظوة تامة» لدى السلطان، وإنه من خواصه وكبير ندمائه

(= ملك الندماء) والمقصود «بملك» عند أهل الهند «الأمير»، أما السلطان أو «شاهين شاه» (= ملك الملوك) فهو اللقب الأكبر.

لكن ابن بطوطة في فصل آخر يقول إن الهروي هذا مجرد واحد من «ندماء السلطان» ولم يصفه بأمير الندماء. وقد قام هذا النديم بدور مهم في تيسير مقام الرحالة في الهند وتدخل في حل مشاكل الديون التي كانت عليه والتي اقترضها لتمويل الرحلة وشراء الهدايا وبلغت ٥٥ ألف دينار، وهي أهم مشكلة مالية واجهته أثناء مقامه في الهند. وقد أدى عنه السلطان محمد شاه الديون بعد أن ألح عليه الدائنون في الطلب، بل منعوه من دخول المشور لممارسة مهامه، وذلك بطلب منه حتى يبلغ الخبر السلطان فيؤدي عنه الديون، وهو أمر سنعود له لاحقاً.

عاش ابن بطوطة ما بين ١٣٣٣ - ١٣٤١ أو ١٣٤٢ في الهند، وكانت الوضعية الاجتماعية والاقتصادية في تلك المرحلة، وتحركات السلطان، ووضع المسلمين وسط مجتمع ذي أغلبية هندوسية «كافرة» كما جاء في رحلته، كانت صورة كل ذلك واضحة ومليئة بالحياة والحيوية، لأن الرحالة روى مشاهداته وما عاين بنفسه، فعدم ذكر شخص ما لم يكن ليؤثر في الصورة الكاملة، ورغم تقديره الكبير للسلطان الذي نعم بكرمه فوصفه بأنه (أشد الناس تواضعاً، وأكثرهم إظهاراً للعدل والحق، وشعائر الدين عنده محفوظة وله اشتداد في أمر الصلاة والعقوبة على تركها...) إلا أن الرحالة انتقد ضمنياً إعدام السلطان لخصومه، خاصة الأولياء والصالحين. واستنكر

طرق الإعدام الرهيبة، وبلغ ذلك حد القول إن هذا السلطان: «كثير التجاسر على إراقة الدماء لا يخلو بابه من مقتول إلا في النادر..»، «ولا يحترم أحداً من أهل العلم والصلاح والشرف...».

وقد عدد الرحالة عمليات الإعدام التي عاين بنفسه أثناء مقامه بدلهي، وأثناء محاولة المعارضين الفرار من المعارك خارج دلهي بعد انتصار جيش السلطان. وكاد الرحالة نفسه يتعرض لنفس المصير عند إعدام الشيخ شهاب الدين الذي انتقد تصرفات السلطان وشافهه في المجلس بكونه ظالماً. فقد سأل السلطان عن زوار الشيخ، وكان ضمنهم الرحالة فتم وضعه تحت الحراسة حتى ينظر في أمره. ويذكر الرحالة أن الله ألهمه الصيام ودعاء «حسبنا الله ونعم الوكيل» ثلاثة وثلاثين ألف مرة حتى «تخلص» من محنته، وكان ذلك بعد مقتل الشيخ.

كثيراً ما تحدث المؤرخون عن نزوع السلطان محمد شاه إلى السيطرة على الهند ولو استطاع السيطرة على العالم لفعل، وكان كل همه توسيع سلطنته إلا أنه فشل. فقد ضاعت منطقة «الدكن» أو الجنوب الهندي من سلطته رغم محاولته المأساوية فشل في جعل مدينة «ديوغير» أو «دولت أباد» عاصمة ومنطلقاً حتى يستطيع من هناك نشر الإسلام والسيطرة على مختلف مناطق البلاد. إلا أن معركته هذه فشلت كما فشل مشروع فتح المناطق القريبة من النيبال. والذي ضاع أثناءه جيش كامل في جبال «قراجيل» (= الهمالايا)، وتأسست في عهده عدة ممالك إسلامية مستقلة

وهندوسية أيضاً، ولم يبق تحت يده سوى منطقة الكوجرات ومناطق أخرى قريبة من دلهي.

ولقد فسر بعض المؤرخين هذا الفشل بانتقام إلهي لما فعله السلطان بالشيوخ، وبأهل دلهي.

كان ابن بطوطة قد غادر الهند في سفارة بأمر السلطان إلى الصين حوالي ١٣٤١ أو ١٣٤٢، فلم يعش هذا الفشل معه. وهو الذي عاش انتصارات السلطان على الثائرين ووصف شعوره «باكتمال سعادته» نتيجة هذه الانتصارات التي عاشها معه، ويتحدث ابن بطوطة عن الاضطرابات التي شهدها عهد السلطان محمد شاه، فقد عين الشريف جلال الدين أحسن شاه (صاهره ابن بطوطة وتزوج قريبة له) على بلاد «المعبر»، فضرب الدنانير باسمه واستقل وأسس إمارة جديدة وكتب على سكته (سلالة طه ويس أبي الفقراء والمساكين جلال الدنيا والدين) وقتل ابنه الذي كان والياً على «حنسي» من طرف السلطان انتقاماً لما فعل والده جلال الدين.

ويذكر ابن بطوطة أنه في تلك الأثناء عزم السلطان على السير إلى «المعبر» ودخولها، لكنه لم يتمكن من ذلك بسبب الوباء الذي حل بجيشه بعد ثلاثة أشهر من المسير، فاضطر إلى الاتجاه جنوباً نحو مدينة دولت أباد، وفي الطريق أصيب بمرض وشاع أنه مات فنتج عن ذلك فتن عريضة، منها ثورة «عين الملك». وحسب ما يذكر ابن بطوطة فإن عين الملك ثار بتحريض من إخوته، مستغلاً خصب

ولايته، وقحط منطقة السلطان وقوة عدته، فأغلب الخيول والفيلة كانت تحت سيطرته، إلا أن غضبه وثورته كانا سببهما قرار السلطان بتعيينه والياً على منطقة أخرى غير «لكنو». وهي حالياً عاصمة ولاية عطار براديش، وليس كون منطقته كانت خصبة، ومما يعزز هذا الرأي أنه بعد هزيمة «عين الملك» صدر عفو عنه وتم تنصيبه مراقباً لضيعات السلطان كما أكد الرحالة. إن تأسيس إمارة إسلامية في المعبر تلاه تأسيس عدة إمارات إسلامية وهندوسية وكان إعلاناً لفشل طموحات السلطان محمد شاه في تأسيس دولة واسعة تحت سلطته. وعندما توفي في ١٣٥١ في منطقة تدعى «تاتا» كان نفوذه قد تقلص، حتى إن أبناء دلهي كانوا يسخرون من تقلص نفوذ السلطان بالقول «خوند عالم من دلهي إلى بالم» ومعناه أن سلطان العالم لا يتجاوز نفوذه بالم وهي منطقة قريبة جداً من دلهي.

تأثر السلطان بابن تيمية

أشار بعض المؤرخين إلى تأثر السلطان محمد شاه بالفقيه تقي الدين عبدالحليم بن تيمية (المتوفى عام ٧٢٨هـ)، ويذكر ابن بطوطة أن السلطان استقبل تلميذه عبدالعزيز الأردويلي الذي ألقى محاضرات أمام السلطان. وتأثر بنظريات ابن تيمية في الجهاد، بل لقب السلطان نفسه بالمجاهد في سبيل الله. كانت المرحلة مرحلة هجوم المغول على العالم الإسلامي وقد تعرضت بغداد والشام ومصر والهند إلى هجومهم قبل دخولهم الإسلام. وكان لابن تيمية

رأي مناهض للمغول حتى بعد إسلامهم، بل شارك في قتالهم من منطلق تفسيره الاجتهادي الخاص للإسلام. ويظهر أن معاداة المغول كانت القاسم المشترك بين السلطان محمد شاه والفقيه ابن تيمية، مع العلم أن السلطان محمد شاه حسب برني وغيره من المؤرخين كان يقول «الدين والدنيا توأمان»، وهي غير بعيدة عن أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية. ويؤكد ابن بطوطة أنه شاهد في مسجد دمشق ابن تيمية أثناء إلقائه درساً حول المجسمة يقول «إن الله ينزل من السماء كما أنزل من منبري هذا». إلا أن ابن بطوطة لم يلاحظ وهو في بلاط محمد شاه تأثر هذا الأخير بابن تيمية، وإن قدر فيه حرصه الديني، أما ضياء الدين برني مؤرخ السلطان محمد شاه الوفي فقد اعتبر محمد شاه إحدى معجزات الزمان دينياً وقيادياً، لكن برني الذي ساعد أحمد بن إياس في تنصيب ابن محمد شاه المزعوم في ١٣٥١ - كما سبق ذكره - انتهى بعد العفو عنه من عقوبة الإعدام، إلى حكم مخفف قضى بتجريده من أمواله وممتلكاته (= التتريك)، وعاش في زاوية الولي نظام الدين ورافق فيها خسروشاه الصوفي الكبير الذي ينسب إليه إبداع الآلة الموسيقية: السيتار. وعندما توفي برني في ١٣٥٧ في نفس الزاوية خلف عدداً هاماً من الكتب منها «تاريخ فيروز شاهي» وهو عن المرحلة التغلقية في الهند وآل تغلق حكموا ما بين ١٣٢٠ - ١٤٢٠ وتميزوا عن باقي العائلات التي حكمت سلطنة دلهي الإسلامية ١١٩٣ - ١٥٢٦ بطول مدة الحكم.

لقد أكد لنا الرحالة أن السلطان محمد شاه، كان يكن حباً خالصاً لآل العباس، بل إنه استقبل أحد أبناء الأسرة العباسية استقبال الملوك، وأنزله في قصر خاص، وقد فسر الرحالة هذا الاستقبال وغيره من إكراميات السلطان لآل العباس بمحبة السلطان لهم. والحقيقة أن السلطان كان يواجه مشاكل ومصاعب في الهند الإسلامية، وكان في حاجة إلى شرعية لمواجهة خصومه السياسيين أمام الشعب خاصة المسلمين منهم. وكان الاحتفاء بآل العباس حتى من غير الأشخاص الرسميين يتم بشكل علني وجماهيري حتى يقتنع الجميع بشرعية السلطان، وبكون الخلافة الإسلامية العباسية راضية عنه وبأنه ينوب عنها. وكان الخليفة العباسي أثناء فتوحات الهند في القرن الحادي عشر قد قلد السلطان محموداً (١٠٠٠ - ١٠٣٠) سلطان غزنة لقب يمين الدولة.

روى الرحالة أن السلطان بعث شيخاً صوفياً هو «رجب البرقعي إلى الخليفة العباسي في مصر: محمد المنتصر بالله بن جعفر المتوكل على الله، وكتب إليه يطلب منه أن يعقد له النيابة ببلاد الهند والسند»، أي أن السلطان محمد شاه يلتمس تكليف الخليفة العباسي له بحكم الهند، ويظهر من خلال ذلك أن سلطان الهند كان في حاجة ماسة إلى شرعية/ الخلافة لتأكيد شرعيته أمام خصومه، ويظهر أن الصوفية كانوا يعملون لدى البلاط الهندي ويكلفون بمهام دبلوماسية. وكان السلطان محمد شاه قد كلف قبله شيخاً آخر يدعى سعيداً بالمهمة نفسها، وعند عودته حمل ثياباً

وخلعاً ادعى أنها هدية من الخليفة العباسي، إلى السلطان محمد شاه، لكن الشيخ رجب البرقعي الذي عاد بعده من مهمة مماثلة، أخبر السلطان في مجلسه وأمام الحضور أن الشيخ سعيداً كاذب، وأن لا صلة للخليفة بالأمر. فغضب السلطان على الشيخ رجب البرقعي، لأنه أذاع ذلك في مجلس السلطان الذي يهمه أن يبدو سلطاناً لبلاد السند والهند بتزكية من الخليفة. وربما سمي رجب بالبرقعي، لأنه كان يلبس أثواباً هي عبارة عن رقع، مع أن البرقع هو لباس / حجاب المرأة.

وقد ظل الارتباط بالخلافة أحد هموم المسلمين في الهند، وبعد سقوط الدولة العثمانية وانهيار الخلافة في تركيا سنة ١٩٢٣، واستحالة الارتباط بنظام الخلافة قرر المسلمون الانفصال عن الهند وأسسوا دولة باكستان الإسلامية في ١٩٤٧.

الروافض والشيعة

كان من مصاعب حكم السلطان محمد شاه في الهند وافتقاره إلى الشرعية لتقوية مركزه، ظهور تحركات شيعية في الهند بدأت في «ملتان» منذ القرن ١١، ثم زاد من انتشارها هروب الإسماعيليين إلى الهند بعد تدمير هولاكو لمراكزهم في إيران سنة ١٢٥٨.

وكان ابن بطوطة قد أشار بشكل مقتضب وسريع إلى «الروافض» خلال زيارته للعراق وغيره من البلاد، لكنه لم يلاحظ وجودهم في الهند ذات الأغلبية السنية. أو لعل ملخص رحلته الذي كتبه

ابن جزي لم يتضمن ذلك، وهو المعتمد في حديثنا. فابن جزي الذي قام بتلخيص ما كتبه ابن بطوطة عن رحلته بعد عودته إلى المغرب بشكل نهائـي (مستعيضاً به عن كتابه الأول الذي ضاع منه في حادث القرصنة الذي تعرضت له سفينته قرب الهند) لخص (نقصد ابن جزي) ما بدا له مهماً، وتجاوز بعض الفصول لأن موضوعاتها ذات طابع حساس، مما أحدث ثغرات في كتابه مثل السكوت عن بعض المواضيع والمشاهدات ذات الطبيعة الخلافية أو المرور عليها في الكلام مرّ الكرام. وعندما تحدث في الجزء الأول من رحلته عن زيارته النجف الأشرف بالعراق ذكر الشيعة بالاسم ولم يميز منهم الروافض. وكذلك فعل عندما تحدث عن الهند، إذ روى أن أحد الشرفاء كان قد زار الهند وأقام بها ثمانية أعوام وحظي بالعناية والإكرام من السلطان محمد شاه ووزيره أحمد بن إياس، وأن هذا الشريف أوصى بماله بعد وفاته لشريف آخر يدعى حسن الجراني فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدلهي من أهل الحجاز والعراق، هكذا تحدث الرحالة الذي - فيما يبدو - كان يميز مذهبياً بين الشيعة الروافـض (الرافضة) والشيعة الاثنى عشرية، ويقال إن سبب تسميتهم الرافضة أنهم رفضوا بيعة الخليفتين أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، وقيل إنهم الغلاة في حب الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وزعموا أيضاً أن سبب تسميتهم بالرافضة أن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم، كان قد ثار ضد

الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك في عام ١٢٠ هجرية، إلا أنه اختلف مع أنصاره لنهيه إياهم عن انتقاد الخليفتين أبي بكر وعمر، فانفضوا عنه. فقال لهم: «رفضتموني»، فقالوا عنهم الرافضة. كما زعموا أن سبب التسمية هو كونهم رفضوا الصحابة وأبطل بعضهم الجهاد.

والشيعة هم الذين شايعوا وساندوا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقالوا إنه أحق بالخلافة، وساقوا دلائل على ذلك، مثل حديث الغدير وآيات من القرآن الكريم. وانقسموا بعد وفاة الإمام جعفر الصادق عام ١٤٨هـ إلى إسماعيلية وشيعة اثنى عشرية، وهم الذين غاب إمامهم الثاني عشر والأخير محمد المهدي بن الحسن العسكري في ٢٦٠هـ، لذلك لقبوا بالاثنى عشرية تمييزاً لهم عن الإسماعيلية والزيدية وغيرهم، والاثنى عشرية يمثلون أغلبية الشيعة. وقد ظهروا في الهند في القرن ١٠ الميلادي، ويوجدون حالياً بدلهي ولكنو على الخصوص. والإسماعيلية في الهند مازالوا يوجدون في ولاية الكوجرات وبومباي، وبعضهم صار أقرب إلى السنة. وملاحظات ابن بطوطة لم تتجاوز كون الشريف حسن جراني تصدق بماله على جماعة الشيعة الموجودين في دلهي.

إننا نتحدث من خلال الرحلة التي كتب أو لخص على الأصح ابن جزي، لأن هناك ثلاثة ملخصات لثلاث رحلات: الأول كتبه ابن بطوطة وضاع منه أثناء عودته بعد القرصنة التي تعرض لها قرب الهند، والثاني كتبه بنفسه بعد عودته إلى المغرب بشكل نهائي،

والثالث كتبه ابن جزي بعد أن قام بتلخيص الرحلة الثانية التي كتب ابن بطوطة بنفسه. فأصبحنا أمام ثلاثة ملخصات، أو على الأقل أمام اثنتين، إذ إن ابن جزي لخص ما رآه مهماً. ويتجاوز بعض الفصول التي لها طابع حساس. أو رآها غير مفيدة بالنسبة إليه، لذلك يلاحظ بعض الثغرات، منها السكوت أو مرور الكرام على مواضيع ومشاهدات ذات طبيعة خلافية.

الاستخبارات

أثار البريد انتباه الرحالة في الهند، بفعل الدقة التي كان يسير بها، سواء منه بريد الخيل أو «الولاق» أو بريد الراجلين أو الرجالة كما أطلق عليه، وأكد أن بريد الخيل يقدم على أساس وجود الخيل في كل أربعة أميال تنتظر، فتنقل السلع أو الرسائل أو الفواكه إلى أن تصل إلى وجهتها. وبريد الراجلين في كل ربع ميل يوجد رجل على أتم الاستعداد لنقل الرسائل أو الأشياء الخفيفة إلى أن تصل إلى الوجهة المرسلة إليها. وهكذا تتم تغطية سلطنة دلهي كاملة بهذا البريد، وبفضله تختصر المسافات فتصل الرسائل أو السلع في ظرف قصير وتصبح مسافة ١٠ أيام ٣ أيام فقط. وهذا البريد الذي عاينه الرحالة وضع أسسه السلطان غياث الدين تغلق ١٣٢٠ - ١٣٢٥ رغم أنه كان موجوداً بطريقة أو بأخرى قبل ذلك، ويشير الرحالة إلى هدف آخر للبريد، فقد كان جهاز استخبارات بالأساس، ففي كل منطقة يوجد رئيس لهذا البريد، ويتم إعداد

تقارير تبعث إلى العاصمة مركز السلطنة عن كل أحوال المنطقة، ووضعها الاجتماعي والاقتصادي، ومشاكلها وعن الزوار الذين يقصدونها، ويقول ابن بطوطة إن التقرير «لا يترك شيئاً» إلا عاينه حتى يكون السلطان على علم دقيق بالمنطقة والأشخاص و«الغرباء» منهم على وجه أخص، علماً بأنه لا يمكن لهؤلاء الوصول إلى دلهي إلا بعد دراسة التقارير والإذن لهم بذلك. وللبريد الهندي وظيفة أخرى، إذ ينتقل بواسطته بعض المعارضين ومرتكبي الجنايات عند الضرورة. وفي موضع آخر أشار ابن بطوطة إلى أن الماء قد يجلب إلى السلطان عن طريق البريد من أعالي نهر «الغانج» وأن هناك شخصاً صديقاً له اسمه تيمور الشربدار هو المكلف بالختم على الماء الذي يشرب منه السلطان. وهو ابن ملك هندوسي مات في إحدى المعارك فدخل الابن خدمة السلطان بعد إسلامه.

أصدقاء ابن بطوطة

حكى الرحالة أنه حين وصوله إلى السند كان معه أربعون شخصاً منهم الأصحاب والخدم والأعوان، ولم يحدد عدد أصحابه منهم. وذكر أيضاً أنهم أبلغوا أن الدخول إلى السند لا يتم إلا بشرط الإقامة الدائمة، وأن بعض أصحابه لم يوافقوا على ذلك.

وقد مثل ابن بطوطة بين يدي السلطان مع ثمانية فقط من أصحابه، هم على الأغلب من العراق، وكان لهم رواء ومنظر حسن - كما ذكر - فأعجب بهم السلطان ومنحهم هدايا مالية.

لم يذكر ابن بطوطة أصحابه أثناء الرحلة ذكراً مفصلاً - على الأقل في النسخة التي وصلتنا من الكتاب - ولم يسم منهم إلا القليل. كأبي محمد فرحان الذي لازمه خلال الرحلة، كما يبدو من وصفه إياه بالرفيق. ومحمد المصمودي المغربي الذي أقام بالهند قبل ابن بطوطة على الأرجح، بمنطقة «البنغال» التي دخلها الإسلام على يد رجالات الصوفية في القرن ١٣. وقد سماها ابن بطوطة «أرض جهنم الملآى بالنعم» لشهرتها وللرخاء الذي نعمت به، وذكر أن صديقه محمد المصمودي أبلغه أنه كان يشتري طعام سنة لخادمه وجاريته اللذين كانا يعيشان معه بدريهمات.

والمفارقة أن هذا الصديق الذي عاش مع ابن بطوطة بدلهي، ووافته المنية بمنزله لا نعثر على الكثير من أخباره في الكتاب، وكان أصلاً مقيماً في البنغال، ومنطقة البنغال الآن مقسمة إلى ولاية البنغال الهندية الغربية وعاصمتها كلكوتا، وهي أهم مدينة هندية أسست في القرن ١٨ من طرف الإنجليز، وبنغلاديش وهي التي كانت جزءاً من باكستان منذ ١٩٤٧ حتى ١٩٧١ عندما صارت دولة مستقلة وأغلبية سكانها ٩٧ ٪مسلمون، وكان الإسلام قد دخل منطقة البنغال على يد رجالات الصوفية في بداية القرن ١٣.

هذا وكان محمد المصمودي الذي ذكره الرحالة (على الأقل في النسخة التي وصلتنا) من القلائل الذين أشار إليهم بالاسم من أصدقائه، إذ أخبرنا عن صديق آخر عاش معه خلال الرحلة هو أبو محمد فرحان ووصفه بـ«رفيقي».

ومن المغاربة الذين أشار إليهم الرحالة والتقى بهم في الهند: جمال الدين المغربي وهو حسب ابن بطوطة «مستوطن بلاد الهند»، وتدل الكلمة على الإقامة وربما على أسبقية جمال الدين المغربي في بلاد الهند قبل مجيء الرحالة، وقد أكد مرافقته جمال الدين هذا إلى قصر السلطان جلال الدين الخلجي ١٢٩٠ - ١٢٩٦. وكان القصر مهملاً، لأن عادة سلاطين الهند أن يتركوا قصر السلطان السابق، ويشيدوا قصراً آخر. وكانت «عبرة نشأت عنها عبرة». فأنشد جمال الدين المغربي:

وسلاطينهم سل الطين عنهم
فالرؤوس العظام صارت عظاما

وهو بيت بليغ مليء بالجناس والبلاغة.

أبناء ابن بطوطة

تزوج ابن بطوطة مرات حتى إنه لا يذكر عددها، خصوصاً في جزر المالديف عندما تولى منصب قاضي القضاة لحوالي سنتين، واتخذ زوجات عن طريق التسرّي في الهند أيضاً، وتوفيت له طفلة رضيعة بمجرد وصوله إلى دلهي، وقال إن هذه البنت كانت فأل سعد عليه عند ولادتها وبعد وفاتها، فقد كانت السبب في هدايا عديدة توصل بها من أم السلطان. ومن السلطان نفسه ومن غيرهما. وقال إن أم البنت كانت جاريته. وفي موضع آخر أكد

زواجه بسيدة تدعى «حور نسب» وكان أبوها سلطاناً وشقيقها الأمير صديقاً للرحالة. وكانت تتهجد وتقيم الأوراد - كما قال - وقد أنجبت له بنتاً، لكنه خلفهما في دلهي ولم يعد يعلم من أمرهما شيئاً. يفهم ذلك من قوله: (لا أدري ما فعل الله بهما).

وكان لابن بطوطة ولد آخر تركه بعد أن غادر الهند عند صديقه الأمير غياث الدين حفيد المنتصر بالله العباسي، قال: (عنده تركت ولداً سميته أحمد، لما سافرت). كما ترك ولداً آخر مع والدته في جزر المالديف، حيث اتخذ هناك زوجات وسراري، وذكر في رحلته أنه فعل ذلك لأنه وجد بقاء الطفل مع والدته أفضل.

وكان ابن بطوطة أثناء مقامه في دمشق قد تزوج بسورية، أنجبت له ابناً، وأثناء عودته نحو المغرب ووصوله إلى سوريا، بحث عن الابن المذكور، وعلم بوفاته قبل ١٢ عاماً، وفي نفس الوقت أبلغ من طرف بعض سكان طنجة، أن والده قد توفي.

لقاء السلطان

كان اللقاء الأول للرحالة مع السلطان محمد شاه بعد مدة من وصوله إلى دلهي لأن السلطان كان غائباً عن عاصمته. وبعد عودته واستقبال السكان له، دخل عليه الرحالة قاعة الاستقبال بالقصر مع ثمانية من أصحابه، فسأله السلطان «من أي البلاد هو؟» فأجابه الرحالة من المغرب، فقال السلطان «بلاد عبدالمؤمن».

والمقصود بالطبع عبدالمؤمن بن علي الكومي بن علي أمير

الموحدين ١١٤٧-١١٦٣. وحسب الكتابات التي كتبت عن المرحلة فإن السلطان محمد شاه ترك مذكرات كما ترك كتابات بالعربية والفارسية، وكان من المهتمين بالفلسفة، وهو أمر أكده ابن بطوطة أيضاً. وأكد في موضع آخر أن السلطان كان مستوعباً اللغة العربية إلا أنه لم يكن يستطيع مواصلة الحديث بها. وكان السلطان قد أنعم على الرحالة بمداخيل خمس قرى وبعد ذلك تم استدعاؤه، وعينه قاضياً للمالكية بالديوان الملكي. ومن المعروف أن مذهب أغلبية المسلمين في الهند وآسيا هو المذهب الحنفي، كما حدد له راتباً سنوياً قدره اثنا عشر ألف دينار ومثلها حالاً مع مزروعات بنفس المبلغ أو «مجاشر» مثلما نعتها الرحالة.

وقد أشيع عن الرحالة وسط النخبة الحاكمة «أنه كثير الإنفاق» حتى إن السلطان في إحدى سفرياته خارج العاصمة قال له «إن الله لا يحب المسرفين» بعد توجيهات سلطانية بوجوب البعد عن الاقتراض. وكان الرحالة قد اقترض مبالغ ضخمة منها نفقات للظهور أمام السلطان بمظهر جيد. ويظهر أن هذه المبالغ المقترضة تؤدى مع تعويض ضخم، إذ يشير إلى أن هناك جماعة تخصصت في إقراض زوار السلطان، وأن أحدهم استفاد من الرحالة استفادة كبيرة إلا أنه تجاهل الرحالة عندما كان في ظروف صعبة بعد خروجه من الهند.

لقد واجه الرحالة مرحلة حرجة مع الدائنين أصبح معها شاعراً متكسباً، فقد كتب قصيدة مدح فيها السلطان في مجلسه العام. فأعجب بها حتى قال «مرحمة» (= تعاطفت معك)، ورغم أن القصيدة طويلة فلم يصل إلينا منها إلا ٧ أبيات نثبتها فيما يلي:

إليك أمير المؤمنين المبجلا
أتينا نجدّ السير نحوك في الفلا
فجئت محلاً مع علائك زائراً
ومغناك كهف للزيارة أهلا
فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة
لكنت لأعلاها إماماً مؤهلا
فأنت الإمام الماجد الأوحد الذي
سجاياه حتماً أن يقول ويفعلا
ولي حاجة من فيض جودك أرتجي
قضاها وقصدي عند مجدك سهلا
أأذكرها أم قد كفاني حباؤكم؟
فإن حباكم ذكره كان أجملا
فعجل لمن وافى محلك زائراً
قضا دينه إن الغريم تعجلا

الشيوخ والزوايا

اهتم الرحالة بالصلاح والأولياء وشيوخ الزوايا اهتماماً استثنائياً، ورغم أنه لم يخبرنا بعلاقته بالصوفية والزوايا بالمغرب، فالرجل كان صوفياً مخلصاً، لذلك فعند إقامته بالهند قام بزيارة أضرحة الأولياء في دلهي مثل بختيار الكعكي الذي كان يمنح المحتاجين كعكة ذهب، لذلك سمي الكعكي. كما زار ضريحي الشيخ نور الدين الكرلاني والفقيه علاء الدين الكرماني وغيرهما.

وقد زار من الذين على قيد الحياة الشيخ محمد الكبا الذي قال الرحالة إن له كرامات عاينها بنفسه، فهو لا يملك مالاً، ولكنه يطعم «الوارد والصادر» أي المسافر من الجهتين. والتقى أيضاً الشيخ علاء الدين النيلي الذي كان واعظاً، وكان الرحالة يحضر عظاته يوم الجمعة، وذكر أن المقرئ قرأ بين يديه قوله تعالى ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد﴾ سورة الحج الآيتان ١و٢. فصاح أحد الفقراء الحاضرين صيحة توفي على إثرها من شدة وقع الإيمان. وفي كتاب «قتلى القرآن» لأبي إسحاق الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هجرية، ورد ذكر عدد الذين توفوا إثر سماعهم آيات من القرآن الكريم وتأثرهم بها حتى الموت. مثل الآيات: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ سورة البقرة الآية ٢٤، ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ سورة الذاريات الآية ٢٢، ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ سورة المدثر الآية ٨.

وزار ابن بطوطة أيضاً الشيخ صدر الدين الكهراني، وهو صائم الدهر، والشيخ كمال الدين عبدالله الغاري ورافقه في زاويته طويلاً. وخارج دلهي زار مع السلطان ضريح الشيخ سالار. أما الزوايا فقد كانت ملاذ الرحالة وسكناه وعندما «هم السلطان بعقابه» بعد أن سأل عن زائري الشيخ الخراساني فقد لجأ الرحالة بعد نجاته إلى كمال الدين عبدالله الذي كني بالغاري لاستقراره بغار، فانقطع الرحالة إلى الشيخ ولازمه وترك كل شيء ووهب أمواله للفقراء والمساكين، وانقطع إلى العبادة صحبته لمدة لم يحددها، ويظهر أنها مدة قصيرة، إذ سرعان ما استدعاه السلطان ليرافق الوفد الدبلوماسي إلى الصين الذي كان يحمل هدايا ورسالة إلى إمبراطور الصين جواباً على طلب بعثه الأخير لبناء معبد بوذي، وكانت رسالة السلطان الرفض، إذ لا يسمح ببناء المعابد في الأرض الإسلامية إلا لمن يؤدي الجزية أو لأهل الذمة فقط.

ومن «الكرامات» التي أبلغنا بها الرحالة لقاؤه «دلشاد» أو القلب الفارح، الذي كان أخبره أبو عبدالله المرشدي أثناء زيارته الإسكندرية بلقائه. وقد ساعد دلشاد ابن بطوطة بعد أن تاه عن رفاقه واعتقل من طرف «عصاة السلطان» وهرب منهم وعاش ظروفاً صعبة، وذكر أن دلشاد الذي وصفه بكونه أسمر اللون عثر عليه وحمله على كتفيه وأنقذه من ظروف خطرة. التقى ابن بطوطة بكل الأشخاص الذين قيل له إنه سيلتقيهم بالهند مما زاد إيمانه برجالات الصوفية وكراماتهم. وأثناء رحلته نحو الصين مع سفارة

السلطان محمد شاه زار زاوية محمد العريان، وهذا الشيخ كما ذكر الرحالة تلميذ للشيخ محمد العريان الولي الصالح المدفون في مصر، وكان لا يعتمر إلا ثوباً من سرته إلى الأسفل وباقي جسده مكشوف، والتقى أيضاً بالقرب من زاوية الشيخ محمد العريان في «بورج بورة» وهي تقع قريباً من دلهي الشيخ المعمر حيدر الأفغاني الذي زوده «ببركة» هي عبارة عن «رغيف شعير»، وذكر أن هذا الشيخ يصوم الدهر. «وفي خلوته يقتات بأربعين تمرة في كل يوم واحدة»، ولاحظ للمقارنة أن رجب البرقعي في دلهي وهو صوفي تعرف إليه كان يدخل الخلوة بأربعين تمرة وبعد مرور أربعين يوماً يفضل منها ١٣ أي أنه يقضي ٤٠ يوماً في الخلوة ويأكل ٢٧ تمرة فقط مع الماء.

لقد قامت الزوايا وشيوخها بدور فعال في نشر الإسلام في الهند. وفي الفترة التي أقام فيها الرحالة في الهند كانت هناك زاويتان رئيسيتان: الشيشتية وكانت لا تقبل العمل في مناصب السلطة. والسهروردية التي كان أعضاؤها الكبار لا يرفضون العمل الحكومي. وكانت الشيشتية ذات نفوذ من دلهي إلى البنغال، بينما كانت السهروردية في غرب الهند بمدينة مولتان ونواحيها بالأساس. أي أن نفوذهما كان يقسم الهند الإسلامية القديمة، إلا أن هاتين الزاويتين كانتا تستقبلان الهندوس أيضاً، وتمنحانهم الطعام والمأوى. وعن طريقهما دخل عدد كبير من الهندوس في الإسلام. وعقيدة السيخ وهي آخر «ديانة» هندوسية قامت على أساس المبادئ

الصوفية، ولاتزال معابدها تقدم الطعام «للوارد والصادر» حتى الآن، وعدد أتباعها حالياً من الهندوس حوالي ٣٠ مليوناً، وكانت قد ظهرت في عهد الدولة الإسلامية الثانية ١٥٢٦ - ١٨٥٧ في الهند. وكان مؤسسها غورو ناناك ١٤٦٩ - ١٥٣٩ من مريدي الزوايا الإسلامية، كما أن أحد المسلمين من أعضاء الزوايا هو الذي لحن أشعار «غورو» ويدعى ماردانا. ومصطلح «السيخي» يعني المريد، وهكذا لم تؤثر هذه الزوايا في المسلمين فقط في نشر الإسلام، بل أثرت في الهندوسية أيضاً، وذلك بفضل تعاملها الإنساني.

طرب أباد

رغم تدين ابن بطوطة وصوفيته فقد اهتم بالغناء وأعجب بجمالية السماع في بعض الزوايا، وقد لاحظ أن في الهند أسواقاً للغناء «طرب أباد» (موطن الطرب)، وأن بعض أمراء وسلاطين المسلمين مثل سلاطين الهندوس زاروا هذه الأسواق واستمتعوا بالطرب.

وذكر ابن بطوطة أنه استصحب في إحدى سفرياته فرقتين غنائيتين كانت كل منهما تغني له نوبة في عربة تحمل خيمته المتنقلة. وأشار أيضاً إلى الأعراس الهندية خاصة عرس أمير الشام الذي كان صديقاً له وتزوج أخت السلطان، كما أشار إلى الفرق الغنائية والراقصات اللائي أطربن الحفل. وذكر أن هؤلاء المغنين

والمغنيات كانوا يضعون سجادة الصلاة بجانبهم وفور الأذان ينهض المسلمون منهم للصلاة.

كان ابن بطوطة صريحاً في مذكراته التي تمت تسميتها «رحلة ابن بطوطة»، أو كما أطلق عليها ابن جزي «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». كان صريحاً حتى فيما يهمه شخصياً، فقد أكد أن أحد الأمراء أثناء فتح «سند أبور» (= غوا حالياً) أهداه جارية جميلة، وأنه رفض إعادتها لزوجها لأنها أعجبته، كما أكد أنه يعشق الجواري «المهارتيات»، أو «المراتيات»، وشعب المراتيين هو الذي يسكن غرب الهند حالياً وعاصمتهم مومباي.

وحكى أنه في جزر المالديف أثناء حفل زواجه بابنة أحد الوزراء، أبلغ أنها رفضت، فسألوه هل يتزوج ربيبة وزير آخر فقبل وتزوجها. وذكر أنه كان لا يركب سفينة إلا إذا توفرت على مرحاض خاص «لأجل الجواري». وهذا من أسباب عدم ركوبه السفينة التي كانت تحمل هدايا ورسالة السلطان الهندي إلى إمبراطور الصين والتي تحطمت بعد ذلك، فنجا الرحالة لكن سفينته التي اختارها ضاعت بدورها في بحر الصين، وضاعت الجواري اللائي كن فيها ومنهن جارية كانت حاملاً منه وتلك قصة أخرى.

الفلاحة

قارن الرحالة بين المزروعات والنشاط ألفلاحي في الهند وفي المغرب، وأكد أن النبات الوحيد الموجود بالمغرب وله مماثل بالهند

هو «النبق» وإن كان «نبق» الهند أضخم، وأشار إلى وجود البرتقال «النارنج» بالهند. وإلى كون الهنود يزرعون المزروعات مرتين في السنة، بينما يزرعون الأرز ثلاث مرات. وإلى أن عملة الهند تساوي أربعة أضعاف عملة المغرب. ولم يتحدث الرحالة عن القرى الهندية ولا عن الفلاح الهندي. فالمذكرات اهتمت بالمدن والسلطان والنخبة الحاكمة، وبالخلافات على السلطة، وثورات بعض الأقاليم. وإن كان قد أشار إلى الضرائب المفروضة عليها، وأن السلطان يمنح القرى والأراضي على أن يأخذ المقطع له جزء من الضرائب المستخلصة تساوي نصف العشر على أساس مبلغ محدد. وبعض المقطع لهم لم يستطيعوا الوفاء فتم تجريدهم من أموالهم وإعدامهم، وكثيراً ما يكلف «الكفار» بمهمة الاستخلاص هذه. ويشير مؤرخ هندي إلى أن الفلاح في الأرياف الهندية في هذه المرحلة عاش في ظروف عادية، ولم يتعرض لأي معاناة، فقد عاشت الأرياف أوضاعاً عادية «كانت الصفة الحميدة لحكم الأفغان هي عدم تدخلهم في ترتيبات الإدارة الداخلية، لم يتدخلوا في أمور الشعب والسلطات الثابتة وعاشت جموع الفلاحين والعاملين بالزراعة تحت نظام ملاك الأراضي....». ويظهر أن سلاطين دلهي الإسلامية الأوائل لم ينزعوا إلى استخلاص مبالغ ضخمة من الفلاحين، كما لم يلجؤوا إلى المبلغ الأقصى في المذهب الحنفي وهو ٥٠٪، بل حافظوا على النظام الذي وجدوه في الأرياف الهندية. التي كانت تشكل حوالي ٨٠٪ من سكان الهند، وذلك لما فيه مصلحة الطرفين. فزعزعة

استقرار النظام الزراعي ستؤدي حتماً إلى انهيار القطاع ألفلاحي المنتج، لذلك فإن الحرص على استقرار الأوضاع وتكليف «الكفار» بالاستخلاص، كما أكد ابن بطوطة، جزء من هذه السياسة. ومن الطريف أن «صلاة الاستسقاء» في بعض مناطق الهند التي يؤديها الهندوس كانت تتم من طرف النساء بعد تجردهن الكامل من ملابسهن أثناء الحرث.

عجائب الهند

روى الرحالة بعض الأمور الغريبة، منها أشياء أنكرها أي رفضها وكذبها، وأكد بتعبيره أنها غير منطقية، وأخرى سكت عنها. فقد سمع من الناس أن أم السلطان كفيفة، وأن بصرها كفّ يوم تعيين ابنها – محمد شاه – سلطاناً. فقد زارتها النساء وكن يتقلدن الذهب وهي تجلس على سرير من ذهب، مما أدى إلى فقدانها البصر نتيجة الإشعاع. ولم تنفع كل المراهم في علاجها؛ وروى أن السلطان استدعاه ليلاً إلى جلسة خاصة مع «خواصه». وأن أحد «الجوكية» (اليوغا) أمر جوكياً آخر فصعد متربعاً فوق المجلس فناداه الجوكي الجالس أن ينزل فرفض، فأمر الجوكي الجالس نعله فصعد النعل حتى وصل رأس الجوكي الذي في الهواء وبدأ يضرب رأسه حتى جلس متربعاً أمام السلطان. وحكى نفس الحكاية تقريباً وهو في مدينة الخنساء (= هنك شو بالصين) عن مشعوذ أمر حبلاً

فصعد الحبل حتى غابت كرته الخشبية وأمر صبيه بالصعود فصعد الصبي مع الحبل وغاب في قمته. فنادى «الجوكي» الصبي فرفض النزول والظهور، وصعد هو الآخر كالمغتاظ، وغاب وبدأت تسقط أيدي وأرجل الصبي إلى الأرض ثم نـزل «الجوكي» وأخذ أعضاء الصبي وركبها له وعاد للحياة......... ويؤكد ابن بطوطة أنه أصيب بالخفقان، وأمر له السلطان في الحكاية الأولى بشربة، إلا أن أحد الحاضرين من الفقهاء الكبار في الحكاية الثانية بمدينة الخنسا في الصين، أبلغ ابن بطوطة أن جميع ما شاهد لم يقع إطلاقاً فلا حبل صعد ولا صبي قطع، وإنما أمور شعوذة ليس إلا. لكن ابن بطوطة لم يشرح ما روى، فهل الأمر تنويم مغناطيسي أم لعبة مسرحة؟ أما كتاب «عجائب الهند» لمؤلفه إلبزرك الناخودة الزامهرمزي، فيحكي حكايات ومشاهدات عن الهند وبحارها وجزيرة الواق واق. وإن كانت جل حكاياته عن البحر وبعضها عن قدرة بعض السحرة على معرفة لغة الطيور وصيد السمك بالتعاويذ وصيد الحيوانات بخطوط على الأرض، أو حكاية الرجلين اللذين أشعلا النار في جسديهما، فظلا يتكلمان ويلعبان بدون تألـم «حتى طفيا» حسب ما جاء في الكتاب. وهي شبيهة بالساتي وممكنة، إذ هناك أمثلة عديدة لها في المجتمع الهنـدي.

وروى نفس الناخودا (= الربان) أنه رأى النار تشتعل في البحر العربي، إلا أن حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد» أرجع

الظاهرة إلى حالة طبيعية في بحر العرب المطل على بومباي. وقد عاينها الراحل حسين فوزي في ١٩٣٣؛ وابن بطوطة يؤكد مثل هذه الظاهرة في المحيط الهندي. إذ كانت تعاين كل سنة من طرف سكان ديبة المهل (= جزر المالديف) وكان الناس يحملون القناديل ويبدؤون بالصراخ والضرب على الطاسات ويهرب «الجن» الذي كان يغتصب ويقتل العرائس. ومن الملاحظ أن ابن بطوطة بخلفيته الفقهية كان موضوعياً بصفة عامة إلى أقصى حد فيما حكاه عن الهند، فقد تكلم عن بلد شبه عادي مثل باقي البلدان باستثناء تفرده وتميزه في المزروعات والأحوال، والجغرافيا، والحوادث وغيرها. ولم يستغل نأي البلد ليحكي المستحيلات كما دأب آخرون مثل كاتب أو كتاب «ألف ليلة وليلة» المنقول جزئياً عن كتاب «عجائب الهند» الذي تكلم عن الأفاعي، والنسور الضخمة، والتعاويذ التي تجمد التماسيح.......... وفي حكايته عن الحبل والصبي المقطع، والمركب، أكد أن الأمر شعوذة فقط، مما يعطي لرحلته مناخاً موضوعياً. إضافة إلى أنه يميز بين ما عاينه وما سمع به، ففي قصة «هاجوج وماجوج» أكد أنه لم يشاهد هؤلاء كما لم يلتق بأي شخص شاهدهم، وهي حكاية عن قبائل «الهون» الصينية التي شيد سور الصين العظيم لمنع هجماتها. وهناك أمثلة عديدة في هذا الصدد تحفل بها الرحلة، فإيمان الرحالة وعقيدته الإسلامية كانا يمنعانه من المبالغة، أو مخالفة الحقيقة. باستثناء أخطاء ترجع إلى

الذاكرة والنسيان. وهي أمور طبيعية وعادية، كالمسافة بين مدينة وأخرى، أو الخطأ في توالي المدن التي زارها.

ابن بطوطة: الفقيه/ الاجتماعي

وصل ابن بطوطة إلى الهند في سنة ٧٣٤هـ، حيث تولى القضاء لأول مرة رفقة أصدقائه وفيهم مغاربة، ومصريون، وعراقيون، وقد وصل إلى السند ثم إلى منطقة البنجاب (= خمسة أنهار) (وهي التي قسمت في العصر الحديث بين الهند وباكستان بعد انفصال البلدين في ١٥ أغسطس ١٩٤٧)، وذكر الرحالة في رحلته أن المخبرين، بمجرد وصوله، كتبوا إلى السلطات المركزية في دلهي بذلك. ودلهي آنئذ واليوم هي عاصمة البلد. غير أن دلهي التي عاش فيها ابن بطوطة تبعد عن دلهي الحالية بحوالي ١٥ كلم، وهي اليوم مجرد خرائب. أما دلهي اليوم فقد بناها شاه جاهان (١٦٢٨ - ١٦٥٨م) وأدخل عليها الإنجليز تحسينات العمارة الإنجليزية بعد فشل ثورة «بها دور شاه» آخر إمبراطور هندي مسلم في ١٨٥٧، ثم عزلوه ونفوه إلى بورما حيث توفي في ١٨٨٦م.

ومن الملاحظ أن رحالتنا لم يكن يتولى أي منصب في المغرب ربما لصغر سنه - حوالي ٢٢ عاماً - أو على الأقل لم يصلنا أي خبر عن مهنته قبل رحيله من المغرب، إلا أن هناك ملاحظتين جوهريتين:

الأولى: أن قافلة الحجيج اختارت ابن بطوطة قاضياً لها - كما سلف - وهي عادة كانت تتخذها قوافل الحجيج لفهم الشعائر، والبتّ في النزاعات التي قد تحدث خلال الرحلة التي قد تستغرق سنة أو أكثر حسب مشاق الطريق.

الثانية: أن جلّ البلدان التي قام بزيارتها ابن بطوطة استقبل فيها من طرف قاضيها ونزل ضيفاً عليه، ورافقه غالباً أثناء المقام.

وهذا يدل على أن رحالتنا كان فقيهاً متمكناً يلاحظ ذلك في الإشارات ذات المرجعية الفقهية التي يشير على الناس بها غير ما مرة، لذلك أصبح ابن بطوطة في البلدان التي يزورها معروفاً بكونه قاضياً، أو على الأقل شخصاً ذا تكوين فقهي جيد يؤهله ليكون قاضياً، علماً أن كثيراً من القضاة الذين استقبلوه قد أدركوا من خلال الاحتكاك الشخصي به ومكانته لدى رفاق الحج ورفاق السفر - فيما بعد - أن الرجل قاض وفقيه متمكن وفي كثير من الأحيان كان هؤلاء القضاة يتدخلون لدى الحاكم والأمراء والملوك والأباطرة لحل الإشكالات التي تقع لرحالتنا، أو لتقديم المساعدات العديدة التي كان في حاجة إليها، خصوصاً أن صاحبنا كان كثير الإنفاق باسط اليد كريمها، ثم إن مشقة السفر كانت تفرض نفسها ويستحيل تيسير هذه المشقة دون مساعدات معنوية ومادية وعينية. والغربة في القرن الرابع عشر جوازها في العالم الإسلامي هو العلم، فلا أحد يعرف خلفية الغريب إلا بعلمه وتفقهه، وهنا كان لصاحبنا

باع طويل دلت عليه سرعة اندماجه في المجتمع الذي يقيم فيه، واحتياج هذا المجتمع له ولكفاءاته، بل ولقدرته الاجتماعية على التأثير في الآخر لحسن أخلاقه.

ابن بطوطة قاضياً لدلهي

بعد مقام ابن بطوطة في دلهي، التي قرر الاستقرار فيها مع أصحابه بصفة دائمة، بعث الإمبراطور الهندي محمد شاه (٧٢٥ - ٧٥٢هـ/ ١٣٢٥ - ١٣٥١م) إليه أحد أعوانه يقترح عليه إحدى الوظائف العامة. وبعد أن طلب المبعوث الإمبراطوري من كبار الغرباء الذين كانوا يلقبون في الهند بأمر ملكي «بالأعزة» اختيار وظائف مناسبة، التفت إلى ابن بطوطة قائلاً: ما تقول يا سيدي؟ وكان العربي يخاطب في الهند استثناء بالتسويد (= سيدي)، فقال ابن بطوطة للمبعوث الملكي:

«أما الوزارة والكتابة فليست شغلي، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي، وأما الإمارة فتعلمون أن الأعاجم ما أسلمت إلا بأسياف العرب». وأعجب السلطان الهندي بجواب ابن بطوطة ودعاه لتناول الطعام معه. وبعد صلاة العشاء، وفي نفس اليوم وكان يوم جمعة، عين الإمبراطور الهندي ابن بطوطة قاضياً للمالكية في دلهي، وحدد له راتباً بمبلغ اثني عشر ألف دينار سنوياً، وأجرة عينية من المواد الزراعية بنفس المبلغ أي ألفي دينار في الشهر،

والدينار الهندي كان يساوي آنذاك ٤ دنانير مغربية، كما أمر له بمبلغ نقدي حال قدره ٠٠، ٠٠٠، ١٢ دينار وخلعة رسمية وجواد، وأكد له الإمبراطور أن وظيفة قاضي دلهي هي أكبر المهام بالنسبة إليه أي للإمبراطور، وعين له اثنين من المساعدين للنيابة والتشاور وغالباً للترجمة، لأن ابن بطوطة لم يكن يتقن اللسان الفارسي بعد. وخصّ ابن بطوطة بالمخاطبة على العقود. وكان ابن بطوطة ينتقل إلى الديوان كل يوم للقيام بوظيفته التي لم تكن كثيرة الأشغال، نظراً لكونه قاضياً للمالكية أي أتباع الإمام مالك (توفي عام ١٧٩هـ) بينما المسلمون الهنود السنة «حنفية» أتباع الإمام أبي حنيفة في أغلبيتهم، لذلك فقد كلفه الإمبراطور الهندي إلى جانب وظيفة القضاء بالقيام بزاوية أحد أباطرة الهند السابقين هو الإمبراطور قطب الدين مبارك (٧١٧ - ٧٢١هـ/ ١٣١٦ - ١٣٢٠م). وكانت الزوايا في تلك الأيام هي الملاذ لكل محتاج أو مسافر، تقدم لروادها الطعام والمأوى، ونحن عندما نتابع «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، أو رحلة ابن بطوطة نلاحظ أن مقامه إن لم يكن في منزل أحد القضاة أو في ضيافة أمير فهو غالباً ما يكون في زاوية. هذا وكان نجاح ابن بطوطة في تسيير الزاوية كبيراً، لدرجة أن الإمبراطور الهندي محمد شاه خلع عليه خلعة من ثيابه، فكأنه وسمه بلغة العصر.

والملاحظة الأساسية في المرحلة التي قضاها ابن بطوطة في منصب

القضاء في دلهي أنها كانت قصيرة، إذ سرعان ما اعتكف في إحدى الزوايا، وفيما بعد رحل إلى الصين حاملاً رسالة إلى الإمبراطور الصيني من الإمبراطور الهندي، ثم إنه لم يشر إلى قضايا معينة حكم فيها أو عقود شرعية سجلها أو خاطب عليها كما في لغة أهل القانون. فهل الأمر يعود إلى كونه لم يمارس عملياً الوظيفة رغم أن الملك أمره بالقعود للقضاء رفقة معاونيه، أم لم تعرض عليه قضايا على الإطلاق، لكون أتباع مذهب مالك كانوا قلة، ولم يحتاجوا خلال فترة تولي صاحبنا القضاء لخدماته، أم أن تلخيص ابن جزي لأوراق الرحلة أدى إلى ضياع تلك القضايا؟ كل الاحتمالات واردة، والمرة الوحيدة التي أشار فيها ابن بطوطة إلى ممارسة الحكم عندما عرضت عليه قضية نزاع بين اثنين من أعوان النظام في قرية قريبة من دلهي تسمى «أمروها» أواخر عام ٧٤٣هـ، إذ اتهم أحدهما الآخر بشرب الخمر فرد المتهم أنه لم يشرب الخمر منذ ثماني سنوات، فأمر القاضي ابن بطوطة بتنفيذ حدّ شارب الخمر عليه (وهو ثمانون جلدة) وحكم على الآخر بالسجن للوث ظهر عليه.

وهكذا تم تطبيق حدّ شارب الخمر على الشخص الذي اعترف أمام ابن بطوطة بشربها قبل ٨ سنوات دون إثارة التقادم. والتقادم هو مرور مدة معينة أو ظرف زمني محدد تزول معه أسباب العقاب. ومن المعروف فقهياً أن جلّ الحدود في الشريعة الإسلامية تسقط بالتقادم، فعقوبة الخمر تتقادم عند عموم الفقهاء بزوال الرائحة،

وعند البعض بمرور شهر. كما أن جرائم القذف والزنى والسرقة تتقادم بنفس المدة أي بمرور شهر عند الفقهاء، باستثناء القتل العمد الذي لا يتقادم في الفقه الإسلامي، ثم إن مرتكبي المعاصي عند الفقهاء ثلاثة أصناف:

الذين يظلمون الناس بالغصب أو الزور وشهادته والظلم.

الذين يوفرون أسباب الفساد ويفسدون على الناس دينهم.

الذين يشربون الخمر أو يتركون واجباً، أي يضرون أنفسهم فقط.

فالصنف الأول، سواء الذين يظلمون الناس بالدماء أو بالأموال فعقابهم واجب. والصنف الثاني الذين يهيئون أسباب الفساد كأصحاب المواخير مثلهم مثل الصنف الأول.

أما الصنف الثالث فالنصيحة واجبة أولاً، وعند الاقتضاء عقابهم بالزجر وعدم المخالطة.

وهناك عقوبة التعزير التي تهدف إلى التأديب أكثر من العقاب مثل عقوبة السارق المضطر بالغرامة، بدل قطع اليد، أو بالحبس، أو النفي، بدل العقوبة المحددة، فهو أشبه بظروف التخفيف، في القانون الوضعي. ومن مبرراته، مرور المجتمع بظروف خاصة. فالخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جمّد عقوبة الحد في عام «الرمادة»، خصوصاً في السرقة. وبالعودة إلى الحادثة موضوع النزاع أمر ابن بطوطة بسجن المتهم للوث ظهر عليه، وهو هنا يقصد باللوث أعراض الجنون والحمق. والجنون لا يعاقب عليه بالسجن لأنه خارج إرادة

المرتكب للجريمة لانعدام إرادته، فالقلم مرفوع عنه في هذه الحالة. ويظهر أن ابن بطوطة حكم في هذه النازلة باعتباره حاكماً أكثر من اعتباره قاضياً/ فقيهاً.

القضاء في ديبة المهل

كان ابن بطوطة في طريقه إلى الصين في سفارة مع وفد هندي، لكن بعد ضياع البعثة ووفاة أعضائها في عاصفة بحرية، وصل ابن بطوطة إلى جزر ديبة المهل (وهي التي تسمى حالياً جزر المالديف) وتتألف من ١٢٠٠ جزيرة وتقع في المحيط الهندي، وكان الإسلام قد دخل إلى هذه الجزر في القرن السادس الهجري، أي قبل مجيء ابن بطوطة بأكثر من قرن، على يد أحد المغاربة واسمه أبو البركات الذي واجه شعوذة كان يؤمن بها أهل الجزر بقراءة القرآن الكريم، فدخلوا الإسلام على يديه. وعندما وصل ابن بطوطة إلى عاصمة ديبة المهل وكانت تسمى «المهل» (مالي حالياً) وجد قصة أبي البركات الذي دخل «بودخانا» بدلاً من بنت كان ضيفاً على عائلتها، وأبو البركات هذا كان «صناطاً لا لحية له» وأنقذها من القتل بقراءة القرآن الكريم، وعلى إثر ذلك دخل سكان المالديف الإسلام وهي قصة معروفة بل مكتوبة على جدار مسجد العاصمة، فقد قرأها ابن بطوطة في مقصورة المسجد «أسلم السلطان أحمد شنوارازة على يد أبي البركات المغربي».

ورغم أن رحالتنا حاول التخفي فإن أخباره وصلت إلى مسؤولي البلاد بكونه كان قاضياً في دلهي أعظم عواصم المنطقة آنذاك، وكانت سلطانة البلاد تسمى خديجة بنت السلطان جلال الدين، إلا أن زوجها هو الذي كان يسوس الأمور، وبعد مقام ابن بطوطة وزواجه وبرغم أنه لم يكن يرغب في القضاء، إلا أنه لاحظ على القاضي الممارس ضعف التكوين وعدة ملاحظات أخرى منها أنه كان يأخذ عشر التركة بعد قسمتها على الورثة، وهو أمر غير مقبول، فالأمر أن يأخذ أجرة متفقاً عليها مع الورثة لا أن يصبح وارثاً، فتم تعيين ابن بطوطة قاضياً في ديبـة المهل أو جزر المالديف MALDIV. وينوه هنا بأن ابن بطوطة لم يذكر أن هناك راتباً رسمياً للقاضي بعكس الأمر في الهند عندما تم تحديد راتب كقاض.

وقد تمتع صاحبنا في هذا البلد بشخصية قوية، خصوصاً أنه صاهر عائلات نافذة (تزوج عدة مرات). وقد لاحظ أن المطلقة في عرف أهل البلاد تبقى في منزل مطلقها حتى تتزوج بآخر، وأمر بإلغاء هذه العادة السيئة، وأعلن أن كل من طلق زوجته وأبقاها في المنزل يعاقب ويشهّر به. وعاقب عدة رجال على ذلك عددهم ٢٥ شخصاً بالضبط. إلا أن ابن بطوطة لم يشر إلى البديل الذي أمر به، فهل تعود المرأة إلى بيت والديها أثناء العدة، أم تلجأ إلى مؤسسة شبيهة بمثيلتها في المغرب «دار الثقة»، حيث تقيم المرأة أثناء عدة الطلاق الرجعي إلى حين البينونة أو الرجعة.

وهناك عادة أخرى حاول صاحبنا وضع حد لها في جزر المالديف،

هي أن نساء البلاد كن لا يغطين من أجسادهن إلا الجزء الأسفل، فأمر ابن بطوطة بأن يستر الجزء الأعلى لجسد المرأة أيضاً، ورغم أن هذا الأمر لم يلق قبولاً كبيراً لكون عادة «العري» متمكنة فإن دخول النساء مجلس القضاء تحت رئاسة ابن بطوطة كان ممنوعاً إلا بعد ارتداء اللباس الكامل. ولا شك أن هذه العادة كانت مرتبطة بمناخ المنطقة وبالعقيدة الوثنية التي كان يعتنقها أهل البلاد قبل إسلامهم. ولما تزل العقيدة الإسلامية غير متمكنة في نفوس الشعب آنئذ، ولذا احتفظوا ببعض عاداتهم الوثنية. وجدير بالذكر أن زيارة ابن بطوطة لتلك الجزر تمت بعد ثلاثة أجيال فقط من اعتناقهم الإسلام. أما اليوم فلم يعد لعادة عري الجزء العلوي من جسد المرأة وجود.

الإجراءات المسطرية

سن ابن بطوطة عندما مارس القضاء في جزر المالديف طريقة لحضور جلسة مناقشة القضايا عن طريق استدعاء مكتوب للحضور في تاريخ الجلسة التي يستنتج أنها كانت سريعة. وفي حال عدم حضور «المدعى عليه» فإنه يصدر حكماً بالعقاب. إلا أن رحلة ابن بطوطة لا تسعفنا في التعرف إلى طريقة العقاب في حال عدم الحضور، هل هو حكم بأداء الغرامة أم حبس لأيام؟ وهل يعتبر عدم حضور المدعى عليه من دون عذر بمثابة تسليم بما جاء في «مقال» المدعي أو شكواه؟ كما أن ابن بطوطة كان يقبل في مجلس

القضاء بالنسبة إلى النزاعات الشرعية والمدنية بلغة العصر حضور «محام» أو «وكيل» عن المدعى عليه، فهو يشير إلى قضية مهمة رفعها ورثة ضد وصيّ عليهم، وكان في منصب وزير ووجه له ابن بطوطة كالعادة «قطعة كاغد» للحضور، وأوكل هذا الوزير من «يتكلم عنه»، بالإضافة إلى أن ابن بطوطة أصدر عدة قرارات إجراءاتية في السلوك الذي يجب أن يتخذ في مجلس الحكم، كأن تعتمر النساء الثوب كاملاً، كما أصدر قراراً عاماً بأن شكلية الاستقبال أمام الوزير الأول - زوج السلطانة - يجب أن تكون مميزة بينما جميع الوزراء الآخرين يحظون بسلام عادي من طرف الناس. وكان هذا القرار وقرارات أخرى أحد أسباب بداية خلاف ابن بطوطة مع رجالات السلطة في المالديف، مما يشير إلى النفوذ الكبير الذي مارسه ابن بطوطة كقاضي أحكام عادي وكقاض إداري بلغة العصر.

استقلالية القضاء

وضمن الأوامر التي أصدر ابن بطوطة أيضاً بصفته قاضي البلاد إلى جميع الأئمة والمؤذنين المواظبة على عملهم، وعاقب كل من يترك الصلاة وخصوصاً أيام الجمعة، حيث أمر جميع الأعوان بالقبض على كل من لا يؤدي واجب الصلاة ومعاقبته شرعياً. ويظهر أن ابن بطوطة لم يكن قاضياً أو قاضي القضاة فحسب، بل كان بمثابة وزير الأوقاف والشؤون الدينية. ولم يشر ابن بطوطة ضمن أنواع القضايا الأخرى إلا إلى قضيتين: جنائية وجنحية

بلغة القانون المعاصر، وهما فريدتان أثناء مقامه بالمالديف مثل تلك القضية الفريدة في دلهي. وقد أكد ابن بطوطة أن الخصومة في جزر المالديف ليست «كما عندنا» أي أن القضايا قليلة في المالديف، والخصومة في لغة الفقه والقانون هي الدعاوى. وقد كانت القضية الأولى الجنائية التي عرضت عليه - وأشير إليها في كتاب الرحلة - هي قضية سرقة حكم بقطع يد المحكوم عليه فيها، ونفذ الحكم فور صدوره في مجلس الحكم. أما ثانية القضيتين وهي الجنحية، فقد كانت من أسباب رحيله عن جزر المالديف، فقد عاقب أحد العبيد بتهمة الفساد مع إحدى جواري زوج السلطانة. ورغم تدخل الوزير ومطالبته بإطلاق سراحه فإنه أمر بسجنه، والحكم في هذه القضية هو الذي أدى إلى نقاش ساخن مع الوزير الحاكم الفعلي للبلاد أعقبه استقالة ابن بطوطة من القضاء ورحيله عن المالديف في ٧٤٥هـ أي بعد حوالي ثلاث سنوات من العمل القضائي في هذه الدولة/ الأرخبيل. وقد رحل بعد أن طلق زوجته الحامل، فنساء المالديف لا يغادرن بلدهن حسب قوله، فهل الأمر صحيح؟ أم هو ادعاء فحسب لعدم أخذ زوجته الحامل معه؟ إذ روى كونه بعد ذلك سار متنقلاً في المالديف من جزيرة إلى أخرى مع جارية كان كلفاً بها «يحبها» كما جاء على لسانه. وكان ابن بطوطة بعد مدة قد رجع إلى المالديف ووجد زوجته تلك قد أنجبت ابناً، لكنه ارتأى أن مقام الطفل مع أمه أفضل وغادر للمرة الثانية والأخيرة جزر المالديف أو ديبة المهل. وفكر الرحالة، في العودة إلى دلهي إلا أنه «خاف عاقبة

ذلك»، إذ خشي من أن يلاحظ السلطان الهندي ركوبه باخرة غير المركب الذي كان يحمل البعثة/ السفارة إلى الصين، وبذلك غادر آسيا نحو المغرب ثم إلى بلدان أخرى.

ملاحظات

- **خلاصة ابن جزي:**

«انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبدالله محمد بن بطوطة، أكرمه الله، ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر، ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد. ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة، واتخذ حضرة فاس قراراً ومستوطناً بعد طول جولاته، إلا لما تحقق أن مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأناً، وأعمّهم فضائل وأكثرهم إحساناً، وأشدهم بالواردين عليه عناية، وأتمّهم بمن ينتمي إلى طلب العلم حماية. فيجب على مثلي أن يحمد الله تعالى لأن وفقه من أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة، التي اختارها هذا الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين عاماً. إنها لنعمة لا يقدر قدرها، ولا يوفى شكرها. والله تعالى يرزقنا الإعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين، ويبقى علينا ظل حرمته ورحمته، ويجزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين إليه أفضل جزاء المحسنين. اللهم وكما فضلته على الملوك بفضيلتي العلم والدين، وخصصته بالحلم والعقل الرصين، فمدّ

لملكه أسباب التأييد والتمكين، وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين، واجعل الملك في عقبه إلى يوم الدين، وأره قرة العين في نفسه وبنيه وملكه ورعيته يا أرحم الراحمين. وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا ونبينا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين، والحمد لله رب العالمين. وكان الفراغ من كتبها في صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة، عرف الله من كتبها».

- من كتاب ابن خلدون:

«ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دلهي حاضرة ملك الهند، واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه، وكان له منه مكان، واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله. ثم انقلب إلى المغرب، واتصل بالسلطان أبي عنان.

وكان يحدث عن شأن رحلته، وما رأى من العجائب بممالك الأرض. وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون، أن ملك الهند إذا خرج للسفر أحصي أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به،

وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر، يرمي بها إلى شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه، وأمثال هذه الحكايات، فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه».

- ابن تيمية:

عاش الفقيه أحمد بن عبدالحليم بن تيمية: في عصر تميز بظهور جماعات غريبة كالنصيرية، والدروز، والباطنية، وأحداث كغزو المغول للعالم الإسلامي والخلافات بين السنة والشيعة. وكان أن وضع أسساً تفسيرية اجتهادية تناسب المرحلة وتجدد الفقه وأفتى بأن الجماعات الباطنية خارجة عن الإسلام. وأفتى بالجهاد ضد المغول حتى ولو أعلنوا الإسلام. وأفتى بمحاربة المرتدين والباطنية. وكانت المرحلة مرحلة الصراع والخلاف والجهل، وواجه ابن تيمية كل ذلك بدروسه في دمشق والقاهرة والإسكندرية وبكتبه العديدة وفتاواه التي يجمعها ٢٠ مجلداً، لذلك فإن ما لاحظه ابن بطوطة في دمشق جواب في مواجهة الجماعات التأويلية.... ومحاربة الباطنية والفرق الضالة، مما يجعل ما رآه ابن بطوطة يدخل في هذا الإطار التاريخي والفقهي.

- ملحمة المهابهاراتا:

المهابهاراتا: ملحمة تمت كتابتها ابتداء من القرن ١٦ قبل الميلاد، وهي تحكي قصة صراع عائلتين على السلطة في شمال الهند، وهذا

الصراع ممزوج بالحكمة والعقيدة ومن المهابهاراتا تم استخراج كتاب «الجيتا» الذي يقسم عليه الهندوس عند أداء الشهادة. ومصطلح بهاراتا يعني أرض الربيع الدائم، وهو اسم الهند. وكان البعض دافع عن أن يكون هو الاسم الوطني بعد الاستقلال لولا معارضة جواهر لال نهرو ١٨٨٩ - ١٩٦٤ رئيس الوزراء ١٩٤٧ - ١٩٦٤ الذي أصر على الاسم المتداول الهند أو IND. وهو في المعنى العميق «أرض الإله إندرا». وعند البعض الأراضي التي تقع وراء نهر الأندوس الذي تحول بفعل النطق الفارسي إلى الهندوس.

- ملحمة الرامايانا:

الرامايانا: الملحمة الثانية في الأهمية، وهي تروي صراع راما مع فارونا الذي اختطف زوجة راما «سيتا» إلى سيلان (= سريلانكا حالياً)، وساعد القرد مانهومان راما في الوصول إلى سيلان بعد قطع البحر. ويعتبر راما تجسيداً إلهياً.

- الولي :

أولياء: يقصد بلقب أولياء جمع الولي، أما الشيخ فاسمه نظام الدين بدايوني ولد في ١٢٣٨، يقال إنه توفي في ١٣٢٤. وعند البعض في ١٣٢٥. وكان نفوذه قوياً إلى درجة أن السلاطين كانوا يهابونه، وكان الجزء الأهم من نخبة دلهي من مريديه، فضلاً عن جماهير الشعب خاصة أعضاء الزاوية الشيشتية.

- **القتل السياسي:**

القتل لأسباب سياسية: عدد من قتلوا لأسباب سياسية أو نحوها بأمر من محمد شاه لا يتعدى ٤٣٣ شخصاً حسب الحوادث التي ذكرها ابن بطوطة أثناء مقامه في الهند.

- **الزرادشت:**

من أهم المشاكل التي واجهتها طائفة الزرادشت: والتي على أبواب الانقراض أن طائر العقاب الذي حواصله قبور لهم بدأ في الانقراض بسرعة مذهلة، وقد مولت هذه الطائفة الثرية دراسة علمية حول أسباب انقراض هذه الطيور/ الجوارح. واتضح أن السبب يعود لأكلها الكلاب النافقة بسبب نوع من المبيدات. فتم إقناع الحكومة الهندية بإلغاء هذا النوع من المبيدات وتم إجراء حضانة خاصة لهذه الجوارح التي لا تبيض إلا بعد ٥ سنوات، وتبيض بيضة واحدة في السنة، فقد اتضح أن هذه الجوارح تلعب الدور الأهم في تنظيف الهند كلها من الأزبال والجثامين، سواء كانت بشرية أو حيوانية.

- **الأباد:**

أباد: تعني «موطن» مثلاً «حيدر أباد» موطن الأسد، لكن أباد جاءت من المصطلح العربي: أبد، فهي في المعنى العميق تعني الموطن والدوام مثلاً إسلام أبــاد «موطن الإسلام إلى الأبد».

- وليم بنتك:

الحاكم البريطاني وليم بنتك: حاكم الهند لم يفكر فقط في تدمير ضريح تاج محل، بل وقام سلفه وارن هستنجر بخلع أجزاء الحمام الخاص بقصر شاه جاهان في أغرا، وبنتك باع أجزاء القصر تعويضاً عن ثورة ١٨٥٧ ضد الاستعمار البريطاني. وكانت الجيوش البريطانية قد دكت جميع قصور أغرا إلا اثنين بقيت معالمهما. وتقع أغرا على بعد ١٧٠ كلم من دلهي.

- عجائب الهند:

كتاب عجائب الهند: لبزرك بن شهريار كتب في القرن الرابع هجري (١٠ ميلادي) أي قبل زيارة ابن بطوطة للهند بحوالي ٣ قرون، وقد نشر في طبعة جيدة ومحققة من طرف الأستاذ عبدالله محمد الحبشي، وأصدره المجمع الثقافي في أبوظبي سنة ٢٠٠٠.

كتاب حضارة الهند: لمؤلفه روميش تشاندرادات، إصدار وزارة الثقافة والإعلام، مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض ١٩٩٥. والمؤلف أنصف في كتابه هذا حكام الهند المسلمين رغم كونه هندوسياً.

- الزوايا الإسلامية في الهند:

كان للزاويتين الشيشتية والسهروردية: نفوذ عام في الهند الإسلامية إلا أن الزاويتين النقشبندية والقادرية وجدتا لهما مكاناً

ونافستا الزاويتين الشيشتية والسهروردية وهذه الزوايا الأربع هي التي تتمتع بالنفوذ في الهند وباكستان وبنغلاديش حتى الآن. انضافت لها الديوبندية وهي الطريقة التي ظهرت في مدينة ديوبند بولاية عوطار براديش عن دار العلوم، وهي التي نظرت للصوفية. وهي في صراع مع الجماعات الإسلامية ذات التوجه الوهابي وأهل الحديث في الهند.

- انتقد وول ديورانت:

في المجلد الخاص بالهند من كتابه «تاريخ الحضارة» غزوات محمود الغزنوي، واعتبره باحثاً عن المال، وهو خطأ ناتج عن شعور يحمله الغربيون عامة تجاه نجاح الفتح الإسلامي في أسلمة ثلث الشعب الهندي، بعكس المسيحية التي وجدت في ٥٤ ومع ذلك لم تنتشر المسيحية في الهند.

- خودا:

تعني الرب، والناخودة رب المركب، ويقصد بها الربان، أما كاتب قصص عجائب الهند فاسمه بزرك الناخودة الزامهرمزي نسبة إلى «هرمز» وهو الخليج البحري الذي يقع بين سلطنة عمان وإيران. وحكايات «عجائب الهند» موجودة في كتاب «ألف ليلة وليلة» خاصة رحلات السندباد، وما جاء في كتاب عجائب الهند مصادف للصواب غالباً، مع قليل من المبالغات في بعض الأحيان.

- **أبو البركات المغربي**

أبو البركات: نزل ضيفاً على إحدى العائلات في جزر المالديف في القرن ١٢. ولاحظ أن العائلة حزينة فسألهم عن السبب فذكروا له أن أحد «العفاريت» يهدد البلاد بعاصفة بحرية إلا إذا قدموا له بنتاً توضع في «بودخانا»، وأن كل عائلة تقدم ابنتها دورياً وتقتل بعد اغتصابها من طرف هذا «الجن»، وأن نوبتهم قد حلت فعليهم تقديم ابنتهم الوحيدة فتطوع أبو البركات الذي كان معه مصحف، فدخل إلى البودخانا وبدأ في تلاوة سور القرآن الكريم. وفي الصباح وجدوه على قيد الحياة، فدخلوا الإسلام وحسن إسلامهم. وهناك نزاع حول الشخص الذي أدخل أهل الجزر الإسلام، هل هو أبو البركات المغربي أو التبريزي الإيراني كما يؤكد البعض. والرئيس عبدالقيوم وهو رئيس المالديف خلال ١٩٦٥ - ٢٠١٢ أكد في زيارة للمغرب في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، وأثناء أحد الدروس الحسنية التي تلقى في رمضان أمام الراحل العاهل المغربي الحسن الثاني ١٩٦١ - ١٩٩٩ أن الشخص المعني هو أبو البركات المغربي، وهناك دلائل أخرى في هذا الصدد.

- **البودخانا**

مؤلفة من كلمتين بد ويقصد بها «بودا». وخانا يقصد بها بيت، فهي بيت بوذا. وخانا في الهندية تعني الطعام. وخان يقصد بها عند المسافرين النزل أو الفندق. وقد تعني معنى آخر عند الأفغانيين والهنود فهي السلطاني. أو النسبة إلى الإمارة إذا لقب بها شخص ما.

- **اليوغا**

رياضة نفسية وبدنية قاسية يتحكم بموجبها الممارس في جسده إلى درجة عالية الدقة، لكنها في القديم كانت مندمجة في القدرات السحرية، وكان ممارسها يعتبر ذا قدرات مرعبة.

- **بوذا والبوذية**

بوذا هي الأخرى مؤلفة من اسمين تعني المرء المستنير، أما بوذا فاسمه الحقيقي غوتاما ٥٥١ - ٤٦٩ ق. م. لأن بوذا اسم له قصد عقائدي / ديني. ويطلــق على بوذا اسم النبيه. ويلاحظ أنها أقرب إلى النبي. والبوذية عقيدة نادى بها غوتاما الأمير الهندي الذي ولد في إحدى الإمارات الهندية المحاذية جغرافياً للنيبال، وكانت أهداف هذه العقيدة إعادة صياغة الهندوسية ومكافحة قانون الطبقات المغلقة وقانون التناسخ والتأكيد على وحدة الوجود والتسامح، وتحولت البوذية التي كانت ضد أوثان وآلهة الهندوسية إلى معابد وأوثان، وإلى مذاهب عدة في شتى أنحاء العالم.

- **حديث السندباد القديم:**

كتاب من روائع الكتب البحرية لحسين فوزي ١٩٠٠ - ١٩٨٨ ويروي فيه مشاهداته في بحر العرب وحكايات السندباد، وعجائب الهند مع ربطها بالظواهر البحرية والمرحلة التي عاش فيها، وقد شاهد ظاهرة النار في البحر العربي في إحدى ليالي ١٩٣٣ وذكر أسبابها،

ويفهم من كتاب السندباد القديم هذا أن حسين فوزي يرى أن شخصية السندباد قد تكون من عمان وليس من البصرة كما هو شائع.

- **الجانتية:**

نادى بها المذهب في إطار الهندوسية ماهافيرا ٥٤٩ - ٤٧٧ ق.م. الذي أكد على حرمة جميع الكائنات وحقها في العيش في الأرض، ونادى بالزهد والحرمان ومحاربة النفس، وأجاز الانتحار جوعاً. وغاندي من أتباع المذهب. وقد انشق منتسبو المذهب الجانتي إلى ذوي الكساء والدين يلتحفون السماء أي الذين يلبسون، والعرايا ويكتفون برداء وسطي. ولم يبق من أتباع هذا المذهب سوى بضعة آلاف. انظر «غاندي قصة تجاربي مع الحقيقة» ترجمة منير البعلبكي، لبنان، دار العلم للملايين.

- **الزرادشتية أو البارسيين:**

طائفة غادرت إيران في القرن السادس الميلادي نحو الهند، وهي أغنى الطوائف وقد تناقص أفرادها إلى حوالي ١٤٠ ألف نسمة لكونهم يحرمون الزواج مع باقي العقائد ويقدسون النار ولا يدفنون، ولا يحرقون موتاهم كالهندوس، بل يضعونهم نهشاً للطيور الجارحة ويسمون ذلك القبور في حواصل الطيور، لكونهم يعتقدون بنجاسة الأجساد وطهارة الأرض.

- **الكارما:**

يمكن تفسير معناها بالقدر، فالإنسان مجبر على الولادة في إحدى الطبقات وحريته في الانتماء إلى طبقة أرفع تعني موافقته وقبوله بطبقته الحالية والعمل وفق قواعد الكارما والفيدا إلى أن يولد ثانية أو ثالثة في طبقة طاهرة.

- **السيخ:**

آخر طائفة هندوسية ظهرت على يد غورو نانك ١٤٦٩ - ١٥٣٩ الذي أخذ الوحدانية من الإسلام والوصول إليها عن طريق التعدد الهندوسي، إلا أن عقيدة السيخ التي تعني المخلصين تحولت على يد الغورو الخامس إلى عقيدة عسكرية، حيث فرض تسمية كل سيخي أسداً (= سنغ) وكل سيخية لبؤة (= بنكا) كما نادى بالكافات الخمس، وهي التمنطق بالخنجر ذي الفقارين، وضفيرة الرأس، والمشط وعدم حلاقة الشعر، والسوار الحديدي، والسروال الحربي.

- **مختصر الرحلة:**

لقد كان الهدف الأول لابن بطوطة من رحلته هو الحج وإن عبر عن حبه للتجوال، وهكذا انتقل برفقة جماعة - قافلة حجاج - كانت في طريقها لأداء المناسك إلى الحجاز. وكان ذلك يوم الخميس ٢ رجب ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م وكان ابن بطوطة قد ولد في طنجة في يوم

١٧ رجب ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م، أي أن صاحبنا بدأ الترحال وعمره ٢٢ عاماً فقط. وكانت الفترة فترة السلطان المريني عثمان بن يعقوب (٧١٠ - ٧٣١هـ) ابن بطوطة لم يكن الرحالة الوحيد في التاريخ الإسلامي، فهناك سلام الترجمان وسلمان السيرافي وابن وهب القرشي واليعقوبي وابن فضلان والمسعودي والإدريسي والبكري وغيرهم كثير. إلا أن ابن بطوطة أو محمد بن عبدالله الطنجي الشهير بابن بطوطة هو أهمهم على الإطلاق، خصوصاً أنه أعطى في رحلته صورة اجتماعية أحاطت بالحياة الاجتماعية والاقتصادية في جميع البلدان التي زارها. فقد اهتم بالوضع الأسري والزراعة والأطعمة وأنواع الفواكه والوظائف والأعمال الاجتماعية ووضعية النساء. كما اهتم بالجانب العقائدي/ الديني، ودأب على المقارنة بين الوضع في المغرب والوضع في البلد الذي يزوره، سواء فيما يتعلق بالاجتماعيات أو بالمزروعات وأشكال المصنوعات والعبادات. وقد انتقل ابن بطوطة من المغرب نحو أهم البلدان المعروفة بأسمائها الحالية مثل الجزائر وتونس وأقطار العالم العربي سوريا والشام ككل والعراق وإيران وتركيا وباكستان والهند وبنغلاديش والصين والبلغار وإندونيسيا وماليزيا وجزر المالديف وسريلانكا والأندلس وبعض الدول الإفريقية. وقد استغرقت الرحلة الأولى قرابة ٢٧ عاماً، والثانية والثالثة حوالي سنتين. وقد عاش الرحالة في مدينة فاس وتوفي على الأرجح بمدينة طنجة. حيث لايزال ضريحه وسط المدينة القديمة. وقد ترجمت رحلة ابن بطوطة إلى اللغات: الفرنسية

والتركية والإنجليزية والصينية والبرتغالية والألمانية واللاتينية والهندية. والنسخة الأصلية المخطوطة من كتاب الرحلة توجد في باريس بالمكتبة الوطنـية تحت عدد ٩٠٨.

مراجع

١. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتب العلمية، لبنان.
٢. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم ميتز، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، إصدار المركز القومي للترجمة، القاهرة.
٣. المدخل لتاريخ الأديان، الدكتور سعيد مراد، إصدار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
٤. فاس قبل الحماية، روجي لوطورنو، إصدار دار الغرب الإسلامي، لبنان. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر.
٥. خرافات الحشاشين، فرهاد ديفتري، دار المدى للثقافة والنشر، لبنان.
٦. تاريخ شمال إفريقيا، اصطيفان أكسيل، ترجمة محمد التازي سعود، إصدار أكاديمية المملكة المغربية.
٧. الهندوسية، سوامي نيخيلا ناندا، ترجمة محسن ولاد للطباعة والنشر سوريا.
٨. تعاليم بوذا، بوكيو ديتدوكيوكا، ترجمة عبدالجليل جواد دار المحور للنشر، سوريا.
٩. رحلة ابن بطوطة، د. عبدالهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.
١٠. تاريخ الحضارة، وول ديورانت، إصدار الجامعة الغربية. المجلد ٣.
١١. مقالات حول العالم الأسيوي، د. عبدالله العلوي المغرب. مطبعة فضالة.
١٢. الإسماعيلية، فرهاد ديفتري، معهد الدراسات الإسماعيلية، دار الساقي، لبنان.
١٣. موسوعة الفرق والجماعات، د. عبدالمنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة.
١٤. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية والباكستانية وحضارتهم، أحمد محمود الساداتي، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة.

١٥. الديوبندية تعريفها عقائدها، د. السيد طالب الرحمن، دار الصميعي، الرياض.
١٦. حياة البوذا، ديساكو إكيدا، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دمشق.
١٧. سلطنة دلهي، بيتر جاكسون، ترجمة فاضل جنكر، مكتبة العبيكان، الرياض.
١٨. الفتح الإسلامي لوادي السند، الدكتور محمد الغامدي، كلية الآداب الكويت، الحولية ٩.
١٩. الإسلام في الهند، د. عبدالمنعم النمر، الهيئة المصرية للكتاب.
٢٠. المسيحية في الهند، مجلة صوت الشرق، القاهرة، إصدار سفارة الهند بمصر.
٢١. معجم الغني للأستاذ عبدالغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، المغرب.
٢٢. قتلى القرآن.
٢٣. مجلة المناهل المغربية، وزارة الأوقاف، الرباط.
٢٤. ألف ليلة وليلة.
٢٥. عجائب الهند، أبوظبي المجمع الثقافي.

الفهرس


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



ابن بطوطة

في سلطنة دلهي الإسلامية

في هذا الإصدار الهام، نتوقّف مع المؤلف حول رحلة ابن بطوطة الأطول في الهند، وسنرى كيف وجد نفسه أمام مجتمع متعدد التراكيب الدينية والثقافية والحياتية، فقد كان عليه أن يُلامس آثار الآداب والفلسفات والديانات المختلفة، وخاصة المهابهاراتا، والرامايانا، واليونشتياد، والفيدا، لكن ابن بطوطة لم يتعمّق في شرح الأبعاد المفاهيمية في هذه الديانات وكتبها المقدسة عند أتباعها، بل لاحظ تلك الأمور الغرائبية اللافتة للنظر.

اعتنى ابن بطوطة بتلك التقاليد الغرائبية القاسية، ولم يقدم تفاصيل الأديان والعقائد، ربما ليقينه الإيماني بأنها عقائد مُجافية لعقيدته الإسلامية، وربما لكونه من متصوفة المغرب المتسامحين مع عقائد الشعوب، وإن تباعدت عن التوحيد الاسلامي..